دكتور/ كمال بشر

فى اللغة العربية ومشكلاتها



فى اللغة العربية
ومشكلاتها

في اللغة العربية ومشكلاتها

الدكتور/ كمال بشر

الكتـــــاب: في اللغة العربية ومشكلاتها

المــؤلــف: الدكتور/ كمال بشر

تاريخ النشر: ٢٠١٢م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢٤٣١

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978-977-463-112-1

الناشــــر:

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة والمطابع:

١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)

تليفون: ٠٠٢٠٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٠٠٢٠٢٧٩٥٤٣٢٤

التوزيـــــع:

٣ شارع كامل صدقي الفجالة - القاهرة

تليفون: ٠٠٢٠٢٥٩١٧٩٥٩

www.dargharceb.com

دكتور كمال بشر

فى اللغة العربية ومشكلاتها



واجهة الكتاب

لكل لغة (أية لغة) مشكلاتها. وهى مشكلات يفرزها الزمن من وقت إلى آخر، لارتباطها بحال أهليها، وهى حال مشحونة بأنماط تعاملهم معها وكيفيات استخدامهم لها، وفقًا للظروف المعيشية السائدة فى المجتمع المعين من أوضاع ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية . ونتيجة هذا الارتباط الحتمى، يصيب اللغة نوع من التغير عاكسًا ما يجرى فى هذا المجتمع أو ذاك من نشاط إنسانى، مهما كانت درجته من الصحة والقبول أو التجاوز والانحراف. وليست اللغة العربية بدعًا خارجًا عن هذه الحقيقة. إن واقعها على مرّ الزمن يؤكد ما نقول.

حظيت اللغة العربية بدرجات عالية من الصحة والجودة فى فترات زمنية معروفة، اتسمت بقوة العرب وسموّ أقدارهم فى أنماط النشاط الإنسانى كافة، فى حين أصابها الوهن والضعف بدرجات متفاوتة فى عصور التخلف، حتى آل مصيرها إلى ما تشكو منه الآن من خلط واضطراب وحرمانها من نطقها «باللغة العربية» بالمعنى الدقيق، أساس القومية العربية وعنوان الانتماء العربى.

والبحوث المسجلة فى هذا الكتاب تحكى هذه القصة قصة تغير وضع اللغة العربية، مع الإشارة إلى ظروف هذا التغير ودرجاته وأسبابه. ولأن هده البحوث تدور جميعها فى فلك واحد فقد وجدت بعد انتهائى من تجميعها ونظمها نوعًا من التكرار سيلحظه القارئ الفطن، لكنه ليس تكرارًا فى النظم وإن كان تكرارا فى العرض بصيغ وعبارات تختلف إيجازا وإطنابًا وتركيزًا، الأمر الذى ذكرنى بالفكرة المحورية ولعبة تجميع أجزاء الصورة الكبيرة من لقطات صغيرة.

وقد حاولنا فى مجمل هذه البحوث أن ننبه العرب إلى أن ما يمسّ لغتهم من نمو وازدهار أو انحسار وجمود، إنما يرجع إليهم أنفسهم وإلى واقع حياتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية، بوصفهم عربا، أصحاب لغة تنسب إليهم أوينتسبون إليها.

وهذا النسب المؤكد بين الطرفين يوجب الحوار بينهما دائمًا وأبدًا. ومن الطبيعى أن يبدأ الحوار، ويصنف مواقعه وأنماطه أصحاب اللغة التى من طبيعتها الاستجابة الفورية لكل ما يقترحه أو يراه هؤلاء الأصحاب.

وهذا يعنى بوضوح أن الطرفين كليهما يشكلان كلا متكاملا.

وهذا كله يوجب على أصحاب اللغة المعينة تحقيق التكامل بينهم وبينها، فيرعون أمورها ويهتمون بها، فكرا وأداء، اهتمامهم بأنفسهم وهويتهم المنسوبة إلى تلك اللغة.

المحتويات

فى افتتاح مؤتمر جمعية «لسان العرب»
٢٠٠٤/١١/٢١م

صاحب المعالى، ربّ هذا البيت بيت العرب وحاميه وجامع القوم فى جنباته، الأستاذ «عمرو موسى» الأمين العام لجامعة الدول العربية.

صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور على جمعة،يا ذا القول الرشيد والرأى السديد فى دنيا المسلمين وما يصلح أحوالهم، مفتى الجمهورية.

صاحب المعالى الأستاذ الدكتور أحمد جمال الدين ناشر نور العلم والمعرفة فى دنيا الشباب،أمل الأمة ورجال المستقبل، وزير التربية والتعليم.

الأخ الكريم والصديق الأعزّ الدكتور سامى نجيب رئيس جمعية لسان العرب.

السادة الحضور:

أهلاً بكم فى بيتكم، بيت العرب ، وبعد

فإن هذا الجمع الكريم يذكرنى بذلك اليوم الخالد واللقاء القومى العظيم الذى سجله التاريخ بحروف من نور،وأعنى به يوم تأسيس الجامعة العربية،يوم أن ملأ المكان عطرًا وجمّله بأكرم ورود البيان ذكرًا، الشاعر الأنيق بزةً ورسمًا، العميق رؤى وفكرًا، الأزهرى الأصيل فضيلة الشيخ "محمد الأسمر" . وتلقفت "قيثارة"العرب أم كلثوم هذه الورود ونثرتها على الجمع،محفوفة بصوتها الساحر ولحنها الرائع وأدائها الفائق الروعة والجمال.

قال "محمد الأسمر" وغنت "الست"ـ سيدة الغناء العربى أم كلثوم :

زهر الربيع يُرى أم سادة نُجُب ... وروضة أينعت أم حفلة عجب
تجمع الشرق فيها وهو مؤتلف ... كالعقد يلمع فيه الدرّ والذهب
كفاه أنّ يد الله تنظمه ... وأنه أمل للشرق مرتقب

بنى العروبة هذا القصر كعبتنا ... وليس فيه من الحجاج مغترب
عجبت للنيل يُطفى كل ذى لهب ... يكاد من نفحات الشوق يلتهب
حياكمُ وهو جذلان، وقال لكم ... إن العروبة فيما بيننا نسب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب

نعم،إن العروبة بيننا نسب،وهذا يعنى التلاقى والائتلاف،والانتظام فى صف واحد،كالعقد المنسوقة حباته،المشرقة بصفائها ونقائها.

أيها السادة:

هذه أصداء لماض عريق تلفّه العزة والقوة والكرامة والوحدة. ولكن - وا أسفاه - جار علينا الزّمان، وأصابنا برياحه الهوج، فتناثرت حبات العقد، وأصابنا الضعف والهوان،حتى كدنا نذوب وسط أمواج ذلك البحر الملوث بشوائب الفرقة والاستكانة لأسباب داخلية وخارجية معًا، الأمر الذى يفرض علينا اليقظة والحذر،والوقوف بحزم وقوة أمام رياح القوى الغاشمة التى تكاد تعصف ببناء القومية العربية.وفى هذا المعنى يقول "إبراهيم اليازجى" ناعيًا وداعيًا ومنبّها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طما الخطب حتى غاصت الركبُ
فيم التعلل بالآمال تخدعكم ... وأنتمُ بين راحات القنا سُلُبُ
الله أكبر، ما هذا المنام، فقد ... شكاكم المهدُ واشتاقتكم التّربُ
كم تُظلمون ولستم تشتكون، وكم ... تُستغضبون فلا يبدو لكم غضبُ
ألفتم الهُون حتى صار عندكمُ ... طبعًا وبعض طباع المرء مكتسب
وفارقتم لطول الذل نخوتكم ... فليس يؤلمكم خسْف ولا عطب

إلى أن قال :

فشمّروا وانهضوا للأمر وابتدروا ... من دهركم فرصة ضنّت بها الحقب
لا تبتغوا بالمنى فوزًا لأنفسكمْ ... لا يصدق الفوز ما لم يصدق الطلبُ

هذا تصوير لوضع العرب فى زمان ردىء، فما بالكم بزماننا هذا الأسوأ والأردأ: زمان يتخبط فيه القوم خبط عشواء،لا يفرقون فيه بين النور والظلام، ولا

يدركون إلى أين يسيرون، تتخطفهم الأهواء، وتعصف بهم رياح الأعداء، وتذهب بهم كل مذهب،وهم مستسلمون طوعًا أو كرهًا، لا يفكرون فيما هم عليه من حال، ولا يبصرون ما ينتظرهم من مآل .

فماذا عسانا إذن أن نفعل، حتى تنجلى الظلمة وتزول الغمة؟ لابد لنا من صنع نسيج قومى متآلف الخيوط والخطوط، يرسمه ويحدد أبعاده فكر عربى موحد، فكرٌ يجمع الأمة على كلمة سواء، ويصنع منهم جسدًا واحدًا، تتجاوب أعضاؤه لما يصيبه من أفراح وأتراح،أو كما قال شوقى يوم تنصيبه أميرًا للشعراء:

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق ... وكان العزاء فى أحزانه
كلما أنّ بالعراق جريح ... لمس الشرق جنبه فى عمانه

ومثله وأوضح منه بيانًا قول شاعر العروبة على الجارم معزيًا العراق :

إذا مست البأساء أذيال دجلة ... قرأتَ الأسى فى صفحة النيل والكمدا
وإن طرفت عين بغداد من قذىً ... رأيت بمصر أعينا مُلِّئت سهدا
إخاء على الفصحى توثق عقده ... وشدت علَى الإيمان أطرافه شدّا
لنا فى صميم المجد خيرَ أبوة ... زُهينا به أصلا وتاهت بنا ولدا

ذلك كله أيها السادة أمارة بنية ثقافية متكاملة. ثقافة عربية أصيلة بناءً، ملونة ـ بحسب الظرف والحال ـ بثقافات أخر طلاءً. والثقافة الأصلية لها مقومات من جنسها،على القمة منها اللغة القومية.

اللغة أساس القوميات وأمارة الشخصية المميزة لكل أمة. واللغة أيضًا وثيقة الصلة بأصحابها،فالقبيلان متلازمان،وبينهما تبادل دائم مستمر.

واللغة لا تعيش وحدها، وهى مرآة لحياة أهليها، ومن ثم كان تقدمها وازدهارها دليلاً على تقدم أصحابها فى كل مجالات الحياة، وبالمثل، يعكس تخلفها وجمودها تخلف أهليها وجمود مواقعهم فى دنيا الله .

والمقصود باللغة عندنا هى اللغة المنطوقة، لا المكتوبة ؛ لأن المكتوبة فيها تكلف واصطناع. أما المنطوقة فهى تصدر طواعية واختياراً، وفيها صدق الواقع ودفء الحقيقة.

والسؤال الآن : أين هى اللغة العربية المنطوقة ؟ نقول : إنها معزولة عن أهليها، أو قل ــ وهو الأحرى ــ عزلها أصحابها، ولم يعيروها اهتمامًا، بل نظر بعضهم إليها نظرة دونية . وحقيقة الأمر أن العربية المنطوقة الآن لغة ملوثة : عربية كسيحة، محشوّة بالرطانات واللهجات العامية، ومملوءة بالألفاظ والعبارات الأجنبية، وهى ألفاظ وعبارات لا يستطيع مستعملوها أداءها أداءً صحيحًا، ولا يدركون معانيها بدقة . إنهم يفعلون ذلك إظهاراً لنزعة مغلوطة، هى ادعاء الامتياز الثقافى والاجتماعى وأمارة على نظرة فوقية للغات غير العربية .

كل هذا أدى إلى اتهام جمع من العرب لغتهم بصعوبتها وجمود قواعدها، فى حين أن هذا الاتهام ينبغى أن يوجه إلى هؤلاء أنفسهم، إذ هم قد أخرجوها من حسبانهم فبعدت الشقة بين القبيلين .

ومع ذلك يمكن العود إلى هذه اللغة وعقد الألفة معها، باستخدامها والحوار معها قدر الطاقة، وذلك تطبيقًا للمبدأ الذى وضعناه وهو "اسْمَع وأَسمِع" . ومعناه: إن أردت اكتساب العربية (أو غيرها) أو قصدت إلى صقلها وتنميتها وتهذيبها، فعليك أن تستمع إليها مراراً وتكراراً حتى تستقر مادتها فى الذهن، وعليك بعد أن تحاول استخدامها على نمط ما سمعت استخدامًا جهريًا. ومن ثم كانت المطالعة الجهرية بدور التعليم من خير الوسائل فى اكتساب اللغة العربية ونشرها وتقريبها من الناس، عامتهم وخاصتهم على سواء، وكذلك الحال بالنسبة لوسائل الإعلام المنطوقة (الإذاعة ،التليفزيون).

القول القوام فيما يثار حول اللغة العربية من كلام

إنها نغمة قديمة حديثة، تلك التى يثيرها بعض الناس، خاصتهم وعامتهم، حول اللغة العربية ومشكلاتها، وما ينبغى أن نواجه به هذه المشكلات من العلاج أو التخلص منها جملة وتفصيلاً.

ومجمل النغمات المثارة فى الهواء أو المسجلة فى الأوراق، تنصرف إلى اتهام اللغة العربية بالجمود والتخلف أو القصور عن أداء رسالتها فى زمن تتزاحم فيه الأفكار وتتدفق فيه المعلومات. وهى ــ فى رأى هؤلاء الواهمين- لا تستطيع الوفاء بحاجات هذه الميادين، مهما حاولت اللحاق بهذا الجانب أو ذاك، وأنها، مهما حاولت ذلك، يصيبها العثار وتعجز عن إكمال المسيرة، وتجمد حيث هى، تنعى حظها فى عالم مشحون بالحركة والنشاط .

ونحن نقول : نعم. هذه كلمة حق،لكنها وُجِّهت بغير حق إلى متهم برىء. ولهؤلاء الزاعمين وأمثالهم نطرح شيئًا من الحقائق التى تغيب عنهم أو التى يتجاهلونها حتى يتبين الرشد من الغى، ويدركوا أن المشكلة ليست مشكلة اللغة وحدها، وإنما هى مشكلة المجتمع العربى من أقصاه إلى أقصاه .

اولاً : فى الحقيقة اللغوية وأسرارها :

ليعلم الناس أن اللغة (أية لغة على وجه الأرض) ليست كائنًا حيًا (not an organism) يحيا ويموت بنفسه، أو يفعّل طاقاته وإمكاناته ذاتيًا، وأنها إنما سميت أو وصفت بذلك فى العرف العام على ضرب من المجاز، لما تتسم به من إمكانية التطور وقابلية التغير. اللغة ظاهرة اجتماعية (social phenomenon)، شأنها فى ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى، كنظم المأكل والملبس، وبنيات السلوك الاجتماعى والتعامل مع الحياة.تتطور هذه النظم أو الأنماط الاجتماعية بتطور

المجتمع نفسه، وفقًا لظروف الزمان والمكان وما يجرى فيهما من أحداث ووقائع. المجتمع المعين هو العامل الفاعل من البدء إلى النهاية فى هذه الأنماط الاجتماعية كلها بلا فرق . واللغة بالذات هى أقرب هذه الظواهر إلى التطور؛ لشده ارتباطها بالإنسان وأوثقها صلة به، بل إنها - على ما يرى بعضهم - ونحن منهم - هى الإنسان نفسه، وهى مرآته الحقيقية . وبهذا المعنى جاء قولهم «لسانك أنت»(your tongue is you)، أو كما قال العربى فى القديم:

لسان الفتى نِصفٌ ونِصفٌ فؤادُه   فلم تبقَ إلا صورة اللَّحْمِ والدَّم

والمعنى العميق لهذا الكلام أن لسان الفتى هو كل الفتى،لأن اللسان لا ينزع من فراغ، وإنما يستمد مادته من العقل المعبر عنه فى البيت «بالفؤاد».

اللغة لا تعيش وحدها بحال، بل لابد لها من مجتمع، ولا حياة لمجتمع بدون لغة، بينهاوبين أصحابها رباط قوى دائم وتفاعل مستمر . وبقدر مايكون هذا التفاعل، كيفًا وكمًا، وقوة وضعفًا يكون حال القبيلين معًا .

ومن هنا ساغ لنا أن نقول : إن جمود اللغة وتخلفها أو نموها وازدهارها، كل أولئك يرجع أولاً وأخيرًا إلى وضع أهليها، وإلى نصيبهم من التعامل والتفاعل مع الحياة، ومايجرى فى العالم من أفكار وثقافات ومعارف جديدة متنامية . فإن كان لهم من ذلك كله نصيب موفور، انعكس أثره على اللغة، وإن قل هذا النصيب أو انعدم بقيت اللغة على حالها دون حراك أو تقدم. اللغة لا تحيا ولا تموت بنفسها، وإنما يلحقها هذا الوجه أو ذاك بحسب الظروف والملابسات التى تلفها . فإن كانت هذه الظروف فاعلة غنية بالنشاط العلمى والثقافى والفكرى، كان للغة استجابتها الفورية ورد فعلها القوى، تعبيرًا عن هذه الظروف، وأمارة على مايموج به المجتمع من ألوان النشاط الإنسانى. وإن حرمت اللغة من هذا التفاعل ظلت على حالها، وقدمت لغير العارفين فرصة وصمها بالتخلف والجمود، فى حين أن قومها هم الجامدون المتخلفون.

ثانيا : مفهوم اللغة :

اللغة فى عرف الثقات من الدارسين هى اللـغة المنطوقة. أما المكتوبة فليست لغة بالمعنى العلمى الـدقيق . إنها تمثيل للمنـطوق، وتمثيل قاصر إلى حـدٍّ ملحوظ . إنهـا نشاط يتـصف بالاصطناع والتكلف . حـين تكتب خطابًا مـثلاً، تراجـعه مـرة ومرات، وتعيد وتزيد بالإضافة أو النقص أو التعديل، أو القذف بالأوراق إلى سلة المهملات أحياناً . أما اللغة المنطوقة فهى تصدر طواعية واختيارًا، فيها صدق الواقع ودفء الحقيقة .

من هنا كان مصدر الشكوى من صعـوبة العربية والنعى والبكاء على حالها، وما آلـت إليه من ضـعف وهوان . ذلك أن اللغة العـربية بهـذا المفهـوم معـزولة أو عزلها أصـحابها قصدًا أو عن غيـر قصد . فظلت قابعة فى ركن ضـيق محروم من الهواء ورياح التفعيل والتنشيط. ومن هنا أيضًا كانت صعوبتها وكانت غربتها، بل وهجْرها، والنظر إليـهـا نظرة دونيـة . إن أهلهـا لـم يحـاولوا الحـوار معـهـا، ولم يخبروها، فبعدت الشقة بين القبيلين . وانصرف جمع من الناس إلى سلوك لغوى ملوث:عربى كسيح مشحون بالرطانات العـامية، ومحشو بنوافر الكلم والأساليب من لغات أجنبية، إظهارًا للبراعة وإعلانًا عن الفوقية الاجتماعية والثقافية، وهم فى كل الحالات لا يجيدون نطق هذا الدخيل، ولايدركـون معانيه فى أغلب الحالات. ولهذا الانصـراف عن العربيـة بمفهـومهـا الصحيح ـــ وهو كونها عـربيةفـصيـحة صحيـحة منطوقة ـ واتهامها بالجـمود والتخلف أسباب كـثيرة متشابكة مـعقدة من أهمها مايلى:

١-الجهل بمعناه الواسع: الجـهل بالشخصـية العربية ومـوقعها فى دنيـا الناس، وما ينبغى أن يتحقق لها من خـواص مميزة فى الفكر والرؤى والاتجاه والتعامل مع الحياة . وهذا الجـهل - فى رأينا - مصدره حرمان العـرب فى عصرنا هذا من بنية ثقـافية متـكاملة تفصح عنها لغـة موحَّدة موحِّـدة . فالبناء الثقـافى العربى

الآن مهتز الأركان، متنافر الوحدات، مشوه الواجهات . ينبئ عن هذا الوضع غير المقبول لسان حائر غير قادر على تشكيل بنية لغوية ذات رسوم وحدود معلومة.

٢-فقدان القدوة القادرة على تشكيل بناء ثقافى ـ لغوى / قومى. هذا الأمر ملحوظ فى أيامنا هذه فى مجمل المواقع المسئولة عن التربية والتثقيف وإعداد الأجيال لمواجهة الحياة، كالبيت ومراحل التعليم وأولى الرأى والفكر وأصحاب القرار، كل فى موقعه.

٣- الميل الواضح إلى التغريب فى الركنين الأساسيين لبناء القوميات، وهما الثقافة واللغة، إذ هما الآن مهددان بالذوبان وسط أمواج العولمة أو الأمركة الضالة المضللة.

٤- سيطرة اللهجات العامية على الشارع العربى سيطرة تجاوز موقعها وتتخطى حدودها من حيث الانتشاروالإيثار فى الاستخدام على صاحبة البيت الذى ينبغى ألا يشاركها فيه متسلل أو دخيل، وهى العربية فى صحيح معناها .

٥- طرائق التقعيد ومناهجه فى القديم عند وضع قواعد اللغة وضبطها وتحليلها وطرحها فى الأسواق اللغوية على الجماهير العربية العامة والخاصة على حدٍّ سواء؛ حيث سلك العرب فى وضع قواعد لغتهم مسالك شتى ينقصها التآلف والتكامل، الأمر الذى أدى إلى تشتيت القواعد وتفريعها والخروج بمجملها على وجه يحرمها من التلاقى على خط فكرى يضمن لها تشكيل بناء متسق الوحدات محدود الرسوم والاتجاهات . انصرف القوم فى البدء إلى المنهج المعيارى وحسبوه المنهج الأكمل والأوفى للوصول إلى غاياتهم المتمثلة فى وضع أطر وقوانين معينة تكون بمثابة المعيار والمقياس لكل ما يقال ويستعمل من الكلام . فمن سار فى الاستعمال على هدى هذه الرسوم والحدود كان مصيبا، ومن خرج عنها كان مخطئًا. وما إن حاولوا تفعيل هذا المبدأ حتى فوجئوا بما يجاوز منهجهم من أنماط كلامية منوعة تنوع البيئات والمقامات

الاجتماعية، وهى منسوبة إلى أقوام أو أفراد لهم مواقعهم المحسوبة فى دنيا العرب. وكان ما كان: لم يكن لهم بدّ من التصرف بطريق أو بآخر لمعالجة هذه الأنماط الخارجة عما قرروا من معايير ومقاييس . فنحوا بالتقعيد أنحاء أخرى، علها تعينهم فى تفسير ما خرج عن قواعدهم وإخضاعه لما قرروا. انصرفوا حينئذ إلى التفكير المنطقى أحيانًا، وإلى التأويل والافتراض أحيانًا أخرى وغير ذلك من السبل، فكانت النتيجة تعدد الأوجه وتنوع التحليل والتفسير للأمثلة الخارجة، حتى يضمنوا وقوعها تحت مظلة القاعدة العامة التى وضعوها على أساس منهجهم هذا المعيارى.

ومن هنا كانت الصعوبة فى استيعاب هذه التنوعات والتفسيرات لأمثلة القاعدة الواحدة، الأمر الذى ظهرت آثاره واضحة فى العصور اللاحقة، وبخاصة فى وقتنا الحاضر الذى يضج ويشكو آناء الليل وأطراف النهار من صعوبة العربية وقواعدها. فإذا كان لنا أن نصنع شيئًا فى تيسير هذه القواعد وتقريبها إلى الناس فما علينا إلا أن ننظر فى تيسير طرائق تقعيدها، وليس التيسير فى القواعد ذاتها، كما ينادى غير العارفين بالحقيقة اللغوية، إذ إن القواعد هناك، شئنا أم لم نشأ، هى قوام اللغة وعمادها الذى إذا أزيل بفعل فاعل انهارت اللغة وأصبحت أثرًا بعد عين .

محاولات فى تيسير قواعد العربية ونظام كتابتها

الشكوى من قواعد العربية ونظام كتابتها لها أصداء قديمة، وقد تصاعدت وتكاثفت بمرور الزمن، حتى أصبحت الآن قضية لغوية تشغل بال الخاصة والعامة، قصدًا إلى الإصلاح والتيسير.

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير فى إيجاز موجز إلى جهود الدارسين فى القديم والحديث فى هذه السبيل .

أولاً : نظام الكتابة

فى القديم :

لعله من المفيد أن نذكّر القارئ بما خضع له نظام الكتابة العربية من إصلاحات مهمة فى تاريخها الأول. وهى إصلاحات تشى بعمق الفكر العربى الذى تلقى فى البدء نظامًا قاصرًا إلى حدٍّ بعيد عن تصوير النطق العربى السليم. يحضرنا فى هذا المقام ثلاث مراحل من الإصلاح :

المرحلة الأولى:

تتمثل هذه المرحلة فيما اتفق على تسميته «نقط الشكل»، وهو ما قام به «أبو الأسود الدؤلى».

ورث العرب النظام السامى المكوّن من الرموز (الحروف) المجموعة فى قولهم :«أبجد - هوز - حطى - كلمن - سعفص - قرشت». وعددها اثنان وعشرون رمزًا. ثم أضيف إليها الرموز: «ثخذ - ضظغ »، فصارت ثمانية وعشرين. وإنما أضيفت هذه الرموز الثمانية الأخيرة لمقابلة أصوا ت استقلت فى العربية وصارت أصواتًا ذات كيان مميز بعد أن كانت فى الساميات لا تعدو أن

تكون أمثلة نطقية variants لأصوات أخرى معينة، هى وحدات phonetic units فى النظام الصوتى للساميات. كانت هذه الرموز كلها غير منقوطة ولا مشكولة، فخيف اللبس على القرآن الكريم من اللحن والتحريف، فطلب إلى أبى الأسود أن يصنع شيئًا لإصلاح هذا النقص. فأبى أول الأمر، وقال : «لا أضع فى كتاب الله ما ليس كتاب الله، فأقعدوا له رجلاً فى الطريق يقرأ القرآن خطأ، حيث قرأ «إن الله برىء من المشركين ورسوله » ، بكسر اللام فى «رسوله»عطفًا على المشركين . فزع الرجل، وقال :«أحضروا الكتبة» ولما مثلوا بين يديه، قال «سأقرأ القرآن، فإذا فتحت شفتى بالحرف فضعوا نقطة فوقه عن يمينه، وإذا كسرت شفتى بالحرف فضعوا نقطة تحته، وإذا ضممت شفتى فضعوا نقطة فوقه عن شماله». وسمى هذا النقط «نقط الشكل» الذى ميز بين ثلاث حركات قصار. وهى الفتحة والكسرة والضمة، التى يرجع تصنيفها هذا التصنيف، وتسميتها بهذه الأسماء إلى وضع الشفاه عند النطق بها . ومن الجدير بالذكر أن هذا المعيار فى التصنيف والتسمية لا يزال مأخوذًا به حتى الآن فى الدرس الصوتى الحديث ، عند وضع نظام الحركات فى اللغات المختلفة .

المرحلة الثانية:

المرحلة الثانية من مراحل الإصلاح قام بها نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، بإشارة من الحجاج بن يوسف، حيث تم وضع «نقط الإعجام». كانت الحروف غير منقوطة، فالرمز [ب] يصلح لأن يكون باء أو تاء أو ثاء، فميز نصر وزميله بين هذه الاحتمالات ، بوضع النقاط بالصورة التى تبدو عليها الآن [ب-ت-ث]. وهكذا فى بقية الحروف التى تحتمل أكثر من وجه، كالجيم والحاء والخاء والدال والذال، والراء والزاى والسين والشين... إلخ على ما هو معروف . وبهذا النهج السديد فى زمانه السحيق ، زال شىء كبير من اللبس فى نظام الكتابة، ونال قدرًا واضحًا من الإصلاح، فالإعجام من «أعجم» بمعنى أزال اللبس والغموض ، والهمزة فيه للإزالة.

وامتد جهد «نصر ويحيى» إلى ترتيب جديد للحروف، حيث استبدلا بالنظام القديم : أبجد - هوز - حطى - إلخ، النظام المعهود لنا الآن : أ-ب-ت-ث-ج-ح-خ-إلخ، وسمى النظام الجديد بنظام «الألفباء» العربية ، بدلاً من التسمية القديمة «الأبجدية».

وبتحقيق هذه المرحلة الثانية من الإصلاح، ظهرت مشكلة من شأنها أن تفسد العمل كله. تلك هى مشكلة وجود نوعين من النقط ، أحدهما نقط الشكل لأبى الأسود ونقط الإعجام لصاحبيه نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ، الأمر الذى يؤدى إلى اللبس والغموض ، فكان لابد من التفكير فى مزيد من الإصلاح . قيل إنهم رأوا التمييز بين النوعين من النقط بلونين مختلفين فى الكتابة ، وسار الأمر على هذا المنوال ، حتى جاء عبقرى العربية الخليل بن أحمد.

المرحلة الثالثة:

وهى نهاية الإصلاح فى الكتابة فى القديم . تخلص الخليل من نقط الشكل، واستبدل به نظام الحركات القصيرة [ـَـِـُـ] المعروف لنا الآن.

ولهذا الاجتهاد قصة تدل على عبقرية الرجل وامتيازه فى تذوق الأصوات واستيعاب قيمتها فى بنية الكلمة وإدراك خواصها النطقية. نظر فى القيمة الصوتية لحروف المد ، وهى الألف والياء والواو فى مثل : قال - قيل - يقول، المعروفة الآن بالحركات الطويلة، فوجد أن بينها وبين الفتحة والكسرة والضمة علاقة واضحة، هى علاقة الجزء بالكل . ومعناه أن ليس بين هذه الحركات وحروف المد من فروق سوى القصر والطول فى النطق . فكان قراره فائق الروعة : « بما أن هذه الحركات أنصاف حروف المد نطقًا وجب أن تكون نصفها كتابة » فالفتحة نصف الألف والكسرة نصف الياء والضمة نصف الواو . وهكذا كانت النتيجة البارعة المتمثلة فى النظام [ـَـِـُـ]، ونظام الحركات القصار فى الكتابة.

وقد عبر ابن جنى العظيم عن فكرة الشيخ الرائد الكبير بعبارة أوضح وأيسر فى الاستيعاب . يقول ابن جنى : «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، فكما أن هذه الحروف الثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث فالفتحة نصف الألف والكسرة نصف الياء، والضمة نصف الواو . وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة ، وكانوا فى ذلك على طريق مستقيمة».

ولم يكتف الخليل بهذا الجهد المشكور ، بل هداه فكره العميق إلى وضع رموز إضافية للدلالة على ظواهر صوتية من شأنها أن تكمل النظام الكتابى ، وضع رمز السكون[ْ] للدلالة على خلو الحرف من الحركة ، والمدة [~] للدلالة على همز مفتوح متلوّ بمدّ والشدة [ّ] للدلالة على تضعيف الحرف.

وهكذا انتهى الشيوخ القدماء إلى وضع نظام الكتابة العربية، صوامت وصوائت ، وظل العمل به جاريًا حتى الآن ، وافيًا بأغراضه إلى حدّ ملحوظ ، على الرغم مما يقابله فى العصر الحديث من شكوك واعتراضات.

فى الحديث:

فى أوائل الأربعينيات من القرن العشرين ، طلع علينا «عبد العزيز فهمى باشا » باقتراح يعوزه العمق وبعد النظر ، بوصفه نوعًا من العلاج لمشكلة اللغة القومية . رأى صاحبنا استبدال نظام الكتابة اللاتينى بنظام الكتابة العربى ، ومازال بعضهم حتى الآن يحلمون بتحقيق هذا الوهم ، وحسبانه علاجًا لنظام الكتابة العربية ، وبخاصة فيما يتعلق برموز الحركات القصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) حيث إنها بوصفها الحالى تمثل صعوبة حقيقية تواجه الناشئة وصغار المتعلمين.

وقد وهم الشيخ، كما وهم مناصروه، وانزلق الجميع إلى حظيرة الخطأ والخطر . لم يدركوا أن نظام الكتابة العربى خير نظام وأصلحه لهذه اللغة بالذات؛ إذ إن هذا النظام قد جاء وفقًا للحقيقة العلمية المقررة التى تصرخ فى وجه

الزاعقين، والتى تتمثل فى المبدأ العلمى المعروف الآن، المعبر عنه بقول ثقات اللغويين : « رمز واحد لكل وحدة صوتية » . وهذا ما يتحقق - فى جملته - فى نظام كتابة اللغة العربية . فرمز الباء مثلاً هو هو دون غيره يدل فى الكتابة على «صوت الباء» وتنوعاته السياقية، مهما تعددت تلك السياقات وتنوعت . وهكذا الحال فى مجمل الرموز العربية . وينطبق هذا على «رمز الهمزة» ذاتها، ذلك الرمز الذى يشكل صعوبة ملحوظة على الناشئين وغير العارفين . ذلك أن هذا الرمز يكتب مرة على ألف ، وأخرى على واو، وثالثة على ياء... إلخ . وقد فات هؤلاء وأولئك أن الرمز نفسه [ء] موجود فى كل الحالات بلا استثناء، وإنما كتب مرة على ألف، وأخرى على واو أو ياء، مراعاة (كما قال ابن جنى العظيم فيلسوف العربية) لأهل التخفيف أى الذين يسهلون نطق الهمزة، فيقولون مثلاً : «فاس فى فأس»، و «البوس فى البؤس»، و «بير فى بئر ».

ومن محاسن الكتابة العربية ودقتها أن ما ينطق يكتب إلا نادرًا ، وأن ما يكتب له واقع فى المنطوق إلا فى أمثلة محدودة معدودة يدركها من له أدنى معرفة بالكتابة العربية . وذلك على العكس تمامًا مما نلحظه فى النظام اللاتينى المأخوذ به فى كتابة اللغة الإنجليزية ، حيث لا يتحقق هذا المبدأ إلا قليلاً فى كتابة هذه اللغة . لاحظ الأمثلة الآتية : philosophy-fat و Knight-Write (بمعنى فارس). ففى المثالين الأولين أشير إلى صوت واحد وهو [f] برمزين مختلفين، وفى المثالين الأخيرين جاء الرمزان [w] و [k] وليس لهما مقابل منطوق.

وأهم من هذا كله فى نظرنا أن بعض رموز الكتابة العربية لها دلالات لغوية منوعة فى البناء اللغوى . فرمز الواو مثلاً [و] له دلالة صوتية وأخرى صرفية وثالثة نحوية مثل « ضربوا» . فهذا الرمز فى هذا المثال ونحوه يدل على الضمة الطويلة من الناحية الصوتية ، وهو من الناحية الصرفية دليل جمع المذكر ، وهو فاعل فى نظام الإعراب ، وهى وظيفة نحوية مقررة.

ونتساءل الآن: كيف يتم هذا التحليل اللغوى على هذه المستويات الثلاثة ، إذا حاولنا الأخذ بالنظام اللاتينى فى كتابة العربية ؟ الإجابة لا تحتاج إلى كبير عناء.

وليس معنى هـذا على أية حال أن نظام الكتابة العـربية خـال تمامًا من بعض أوجه القـصور . هناك مـأخذ واضح فى هذا النظام ، يتمـثل فى عدم وجـود رموز للحركات القصار فى صلب الكلمة . والنظام البديل الذى وضعه الخليل بن أحمد المتمثل فى الرموز المعروفة [ـَـــُـ] لا يعالج المشكلة معالجة كافية ، إذ إن هذه الرموز قابلة للإهمـال فى الكتابة – وهو الواقع الآن – أو الخلط بينهـا ، الأمر الذى يؤدى إلى الوقوع فى الخطأ والخلط ، كما حدث ويحدث أحيانًا كثيرة. ولكن على الرغم من وجود هذا الضـرب من القصور فى الكتابة العـربية، فإن الأمر لا يسـوّغ بحال اسـتبـدال النظام اللاتينى بالنظام العـربى ؛ إذ إن طبـيعـة اللغة الـعربيـة وتاريخهـا الطويل، وما يلفهما من مشكلات نظرية وعـملية ، كل أولئك يقف حجر عثرة فى طريق استبدال هذا النظام.

لا ننكر أن رموز الحـركات القصار بصورتـها الحالية ، أى كونهـا ليست فى صلب الكلمة ، تشكل صـعوبة حقيقـية يمتد أثرها إلى القـارئ وإلى اللغة ذاتها ، فالقارئ فى حال وجود هذه الرموز قد يخلط بينها أو تغيب عنه قيمتها أو صورها، أما فى حال إهمالها وعدم تسجيلها فى أماكنها فالصعوبة أشد وأبعد أثرًا، حيث لا يسلم القارئ من الوقوع فـى الخطأ فى بنية الكلمة صوتيًا وصـرفيًا، وكثيـرًا ما يمتد الخطأ إلى الإعراب ووجوهه.

وهذا ما نلاحـظه الآن ظاهرًا وواقعًا فى الحـالتين كلتـيهـما بين العـامة ، بل والخاصـة أحيانًا . وقد تسـتقر هذه الأخطاء فى ذهـن الناس بمرور الزمن ، وتصبح كـما لو كـانت هى الأصل ، ومن ثم يصيب الـلغة شىء غـير قليل من الانحـراف والتجاوز عن أصولهـا ، كما يبدو ذلك واضحًا فيمـا يعرف بالأخطاء الشائعة فى بنية الكلمات ووجوه الإعراب والمعانى كذلك.

ومن هنا كانت الشكوى من صعوبة نظام الحركات فى صورته الحالية والدعوة إلى وجوب النظر فى تخليص العربية من هذا القصور . وبالفعل نشط جمع من المخلصين فى العصر الحديث - هيئات وأفرادًا - واجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد فى سبيل الإصلاح كما رأينا سابقًا ، ولكنهم جميعًا لم يوفقوا فى الوصول إلى غاياتهم.

إنها غايات نبيلة ولاشك ، ولكن الحصول عليها أصعب وأقسى من هذا النظام الخليلى للحركات. ذلك أن هناك عوامل واقعية مؤكدة تقف فى طريق محاولات الإصلاح وتحيلها إلى شىء أشبه بالمستحيل.

وتخبرنا الأحداث والأزمان أن تغيير نظام الكتابة فى أية لغة ليس بالأمر الهين، إذ تقف فى طريقه عقبات وصعوبات تحول هذا التغيير إلى مجرد حلم يراود الناس من وقت إلى آخر ، ولكنهم لا يستطيعون تحقيقه لأسباب واقعية وتاريخية وفكرية واقتصادية ، وسياسية أيضًا.

فمن الناحية الواقعية، تبرز اللغة نفسها عاملاً مؤكدًا من عوامل صعوبة هذا التغيير، وربما استحالته. ذلك أن اللغة - أية لغة - من طبيعتها أن تصاحب الزمان فى التغير والتطور، وتكسوها ألبسة وأردية متنوعات متجددات تصد رياح التغيير فى نظام الكتابة، وتفرض على الحالمين بالإصلاح التسليم بالأمر الواقع، إذ إن التغير الدائم فى اللغة يقتضى التغير الدائم فى الكتابة أيضًا، وهذا أمر يفوق طاقة البشر.

أما من النواحى الأخرى، التاريخية والفكرية إلخ، فالتغيير ممكن نظريًا، وإن أقدم علية قوم وصنعوه بالفعل كانت التضحية بالغالى والنفيس فيما يملكون من ثروة فكرية ومعرفية، لما فى ذلك من قطع حبل الوصل بين مدارج الزمن، وتراثه الممتدة حلقاته.

وما حدث فى تركيا على يد كمال أتاتوك سنة ١٩٢٧م من استبدال نظام جديد بالنظام العربى فى الكتابة يحذرنا من الوقوع فى مثل المأزق الذى حرم

طوائف كثيرة من الأجيال اللاحقة من تعرّف تراثهم الفكرى الواسعة دوائره واتجاهاته، وهذا أمر معروف.

وقد حاول الإنجليز فى مطلع الخمسينيات من القرن العشرين أن يصنعوا شيئًا من التغيير فى نظام كتابة لغتهم. وهو نظام معروف ومشهور بصعوبته وعجزه الواضح عن تصوير الكلام تصويرًا صحيحًا. ناقش القوم هذا الأمر لوقت طويل فى مجلس العموم بين الموافقة والمعارضة. وفى النهاية صمت الجميع وقرروا الإبقاء على النظام الحالى، لما تنبهوا إليه من صعوبات تقتضى إزاحتها التضحية بما هو أهم من هذا التغيير.

أدركوا أن التغيير يعنى التضحية بما لا يستطيعون تاريخيًا وفكريًا واقتصاديًا وسياسيًا كذلك، كما لخصوه على الوجه التالى:

١ - الإصلاح باتخاذ أى سبيل آخر، يقتضى العود إلى التراث الإنجليزى المكتوب كله، لتطويعه وفقًا للنظام الجديد المقترح. وهذا العود يحتاج إلى أموال طائلة وإلى كتائب من البشر لا قبل لنا بها فى الحال أو المآل.

٢- إن لم نقم بهذا التطويع وتركنا التراث على حاله فقدنا هذا التراث وقطعنا مسيرة الفكر والتاريخ، أو - فى أقل تقدير - حرمنا الأجيال اللاحقة من الثروة المعرفية على مرّ العصور.

٣- ربما يوافق القوم فى إنجلترا على الإصلاح الجديد، وترفضه البلاد الأخرى التابعة للإمبراطورية والتى لهم بها علاقات تقليدية من قديم الزمان.

٤ - تغيير النظام يقتضى تعليم الناشئة نظامين للكتابة عند الشروع فى إنجازه، وهو أمر غير عملى.

وأكبر الظن أن ما واجه الإنجليز من صعوبات فى طريق إصلاح نظام الكتابة ينطبق برمته على حالنا فى هذا الشأن،بل يزيد عليه ما للعرب والمسلمين من ثروة

دينية فائقة الأهمية، على القمة منها القرآن الكريم والحديث الشريف، وما دار فى فلكهما من بحوث ودراسات.

قد يرد على خاطر بعض المخلصين وجوب النظر فى إصلاح جزئى، وبخاصة فى رموز الحركات القصيرة، وهو ما حاول القيام به مجمع اللغة العربية بالقاهرة أكثر من مرة فى تاريخه الطويل، ولكن شيوخ المجمع ورجاله لم يكتب لهم التوفيق حتى الآن. ذلك أن تغيير نظام رموز هذه الحركات يعنى وضعها فى صلب الكلمة، وهذا أمر بالغ الصعوبة أو أشبه بالمستحيل، حيث إن بنية الكلمة العربية قد استقرت على وضعها الحالى. وهذا التغيير الجزئى سيؤدى حتمًا إلى تغيير نظام الكتابة كله. وهنا سوف نصدم بالصعوبات التى ذكرنا شيئًا منها قبلاً، والتى من شأنها أن تقطع الطريق على المصلحين.

وليس من الحكمة أن نقارن حالنا بما قام به الأمريكان من نظر فى نظام كتابتهم. إنهم لم يستبدلوا نظامًا بنظام، وإنما عمدوا إلى بعض الرموز - وبخاصة رموز الحركات - وعمدوا إلى شىء من التعديل فى هذه الرموز، بالحذف أو تغيير الموقع، حتى يقترب المكتوب من المنطوق، لا أكثر ولا أقل، وهو أمر معروف.

ومع ذلك فالباب مفتوح أمام الجميع للنظر فى الأمر بعمق ورؤية صادقة، شريطة ألا نهدم البناء، وألا نضحى بتراثنا الزاخر ومعارفنا الواسعة العريضة.

والرأى عندنا الآن أن نسلك مسلكًا واقعيًا ، ونحسم أمر الضبط بالشكل ونفرضه على الكاتبين، وبخاصة فى كل المواد الدراسية فى مراحل التعليم العام، وذلك بتسجيل رموز الحركات القصيرة دائمًا وأبدًا فى مواقعها الصحيحة فى الكتابة أو فى الأقل بضبط ما يشكل فى القراءة والكلمات الجديدة فى أول ورود لها حتى يعلق النطق الصحيح لها بذهن المتعلم.

ثانياً: محاولات الإصلاح والتيسير فى قواعد اللغة:

لم يكن من الغريب أن يحاول الدارسون فى القديم والحديث تيسير قواعد العربية، كما حاولوا النظر فى نظام الكتابة،لما رأوه من صعوبات وتعقيدات ينبغى إزاحتها والتخلص منها أو التخفيف من حدتها، حتى يستطيع الشادون والمتعلمون استيعابها والانتفاع بها عمليًا.

فى القديم:

يمكن لنا أن نحسب مناهج التقعيد فى الصرف والنحو عند الكوفيين والبغداديين محاولتين من محاولات التيسير فى هذه السبيل. فالكوفيون - كما هو معروف - حاولوا البعد عن الإغراق فى النظر الفلسفى والمنطقى فى التقعيد والتحليل، وذلك بانصرافهم إلى الواقع فى جمع اللغة، ونقل مادتهم عن المتكلمين كما تلقوها عنهم، دون مداخلات أو تفسيرات ذاتية من تأويلات وافتراضات تبعدهم عن الواقع. وبهذا خفّ الحمل الثقيل الذى صنعه البصريون من تعدد الأوجه للقاعدة الواحدة، ولكنهم هم أنفسهم وقعوا فى مأزق تعدد القواعد للحالة الواحدة، بسبب تعدد الناطقين واختلافهم فى مستوياتهم اللغوية.

أما البغداديون فهم أهل الوسطية الذين حاولوا التوفيق بين المدرستين الكبيرتين، البصرية والكوفية، والتقريب بين مسلكيهما فى التقعيد، على ماهو معروف.

ومع ذلك،ظلت القواعد التى وضعها البصريون تسرح وتمرح فى الأجواء العربية بأحمالها الثقيلة من التفريعات والتأويلات والافتراضات وتعدد الاحتمالات فى الظاهرة أو القاعدة الواحدة، الأمر الذى أحس - ويحس - به كثير من العلماء والدارسين الذين رأوا ضرورة تيسير هذه القواعد ، خدمة للعربية ولأهليها على حدّ سواء.

ظهرت فى القديم محاولات فردية، ولكنها - فى مجملها - لم تحظ بالوفاء بأغراضها لسبب أو لآخر، إلى أن جاء ابن مضاء القرطبى فى القرن السادس الهجرى، ليخرج على الناس بدعوته الرائدة إلى إصلاح النحو المتمثلة فى كتابه المشهور « الردّ على النحاة » الذى قام بتحقيقه وإخراجه إلى النور سنة ١٩٤٧م دكتور شوقى ضيف رحمه الله.

فى الحديث:

قبل تحقيق د. شوقى ضيف كتاب « الرد على النحاة » وطرحه فى الأسواق اللغوية، كانت هناك محاولات فى صورة كتب وبحوث تعالج قضية التيسير هذه. من أشهرها وأهمها كتاب «إحياء النحو » لإبراهيم مصطفى سنة ١٩٣٧، ومقترحات « لجنة وزارة المعارف المصرية » سنة ١٩٣٨ ولكن الزحف الحقيقى الكبير نحو الإصلاح فى قواعد العربية، جاء مواكبًا أو تاليًا لظهور كتاب « ابن مضاء » محققًا منشوراً هنا وهناك فى العالم العربى. وأكبر الظن أن هذا الزحف الناشط فى طريق الإصلاح والتيسير كان صدًى أو مردودًا واقعيًا لأفكار ابن مضاء ومنهجه الجديد فى دراسة النحو وتصنيف مسائله وتنسيق أبوابه، على وجه يخلصه من صعوباته ومشكلاته.

منذ ذاك الوقت حتى الآن ظهرت - ومازالت تظهر - دراسات وبحوث وآراء وأفكار، وتعقد مؤتمرات وندوات ولقاءات مهمومة بقضية اللغة العربية وبنحوها عصىّ المنال، صعب الاستيعاب.

ظهر على الساحة كثير من اللغويين والمفكرين، محاولين الإسهام فى قضية التغيير هذه. كما نشطت مجامع اللغة العربية - وفى مقدمتها مجمع اللغة العربية بالقاهرة - إلى الدرس والبحث فى هذه السبيل على فترات من الزمن متعاقبة، بوصفها قمة الهيئات والمؤسسات المسئولة عن رعاية اللغة العربية وتنميتها

وإصلاح شأنها. وطرحت - ولا تزال تطرح - محاولات هؤلاء وأولئك إلى السوق اللغوية فى العالم العربى كله، ولكنها لم تجد من الاستجابة والسير على هديها ما يعدل ما بذل فى صنعها من جهد ونصب.

وإن ننس لاننس فى هذا المجال أن نسجل بالتقدير موقع الدكتور شوقى ضيف - رحمه الله - فى صفوف الأجناد الفاعلة فى ساحة نصرة العربية، بتمكينها من مواقعها وتسليحها بما يكفل بقاءها عربية زاهرة تحملها رياح «العوربة» الصادقة إلى العامة والخاصة على سواء. ولا يكون ذلك بالطبع إلا بتخليصها مما يلحقها من شوائب وقصور فرضتها عليها تغيرات الزمان والمكان.

شغل شوقى ضيف نفسه وجهده بإزاحة هذه الشوائب ومعالجة هذا القصور منذ الأربعينيات من القرن العشرين حتى وفاته فى مارس ٢٠٠٥م. نظر ودرس وحلل وناقش وحاور وكتب من البحوث والدراسات فى سبيل تيسير العربية وتقريب قواعدها وعقد الألفة بينها وبين أهليها، على وجه يصنّفه رائدًا للنزعة التيسيرية فى قواعد العربية وأساليبها.

انماز د. شوقى ضيف من سائر الأجناد الزاحفين نحو التيسير فى العربية بإنتاجه الغزير العميق كمًا وكيفًا، تشهد بغزارة الإنتاج آثاره اللغوية التى تزخر بها المكتبات العامة والخاصة فى جميع أنحاء العالم العربى، والتى تتسم بتنوع الاتجاهات فى تناول مشكلات العربية، كما تشهد بعمق الفكر ووضوح الرؤية فى هذا التناول.

هداه تفكيره إلى محاولة رسم تصنيف جديد للنحو العربى، وأقام هذا الرسم على أسس رآها صالحة لهذا البناء الجديد، من أهمها:

١- إعادة تنسيق أبواب النحو، بحذف بعضها، أو ضم بعضها إلى بعض.

٢-إلغاء بعض أوجه الإعراب كالإعراب التقديرى والمحلى.

٣- عـدم الإغراق فـى تناول بعض المسـائل الصرفـيـة، وأوصى بحـذف بعـضهـا كالإعلال ونحوه مما لا يفيد المتعلم فى قليل أو كثير.

وعرض الرجل - رحمه الله - جملة من أعماله فى هذه السبيل على مجمع اللغة العربيـة ومؤتمراته على فترات من الزمن مخـتلفة، فقوبل قدرمنهـا بالترحيب والقبول، وأرجئ النظر فى مسائل أخرى، لاختلاف الآراء حولها.

وعلى الرغم من نشـر هذه الآراء والتـوجهـات نحو التـيـسيـر على العامـة والخاصة، وقبول شىء غير يسير منهـا من المجمع، فإنها لم تلق الاستجابة الكافية، ولم تفعّل عمليًا هنا وهناك، بوصفها منظومـة من الإصلاحات أو بوصفها انطلاقة صالحة للسير فى طريق إصلاح أعمق وأعم وأشمل. وظل العمل مسجلاً فى آثاره أو مخـزوناً فى المكتبـات لا يُرجع إليه ولا يُستفـاد منه إلا فى حالات عـابرة، كأن يلجأ بعضهم إلى الاستشهـاد بفكرة جزئية منه عند تناول شىء من القضايا اللغوية بالقبول أو الرفض.

هذا الموقف الذى قوبلت به هذه الاجتهـادات الطيبة للراحل الكريم، حدث - ولا يزال يحدث - ماهو أشد وأوسع نطاقًا منه لجملة المحاولات الأخرى، سابقة أو مصـاحبة أو تالية لجـهود شوقى ضـيف. تنوسيت هذه المحاولات ولم تجـد لها السوق اللغوية المناسبة لتفعيلها.

وهنا يبرز سؤال مهم : لم كان هذا الإعراض أو عدم الاهتمام بتفعيل ماظهر على الساحـة اللغوية فى العـصر الحديث من مـحاولات الإصلاح والتـيسيـر للغة العربية وقواعدها؟

الرأى أن هذا الموقف من العامة والخاصة،يمكن تفسيره - من وجهة نظرنا - بمجموعة من الأسباب والعوامل المعقدة المتـشابكة التى يرجع بعضها إلى الجماهير العربية، وبعضها الآخر إلى طبيعة المحاولات التيسيرية.

وهذه أهمها:

١- التجاهل والتغافل من العامة والخاصة، بحسبان هذه المحاولات آراء شخصية طرحها أصحابها على الناس لمجرد التعبير عما فى أنفسهم ، دون فرض لها أو إلزام باتباعها.

٢- الاقتناع بكفاية الموروث من القواعد وصلاحيته للتعامل اللغوى بطريق أو بآخر.

٣- وفى رأى الثقات من العارفين أن هذه المحاولات التيسيرية فى مجملها لا ترشح نفسها بديلاً لنظام القواعد الموروث، إذ ينقصها التكامل ويشوبها عدم إمكانية التطبيق فى بعض الاتجاهات.

الرأى عندنا:

نحن نرحب كل الترحيب بهذه النزعة التيسيرية للغتنا القومية، شريطة أن تكون خطوط هذه النزعة خطوطًا منهجية، من شأنها أن ترسم هيكلاً أو أن تشكل بناء متكاملاً، متسق الوحدات والمكونات. وهذا ما لم يتحقق فى محاولات التيسير المعروفة لنا.

ذلك أن هذه المحاولات فى مجملها ينقصها وضوح الرؤية، حيث سارت فى اتجاهات متفرقة وسلكت فى عملها مسالك متباعدة، حرمتها من التلاقى عند الهدف المأمول، وهو تشييد نظام جديد لقواعد العربية متكامل البناء والطلاء.

يتبين لنا ذلك من جملة ما صنع هؤلاء وأولئك فى مسيرتهم الإصلاحية، ومن النظر الدقيق فيما طرحوه علينا من أفكار فى هذه السبيل. إن ما صنعوه - ولا يزال يصنع - يمكن تصنيفه إلى ثلاثة أنماط.

الأول:

يتمثل فى وقوف نفر غير قليل عند تقديم النظريات، وتوجيه النقد للقديم، ومحاولة الكشف عن نواقصه ومجرد الدعوة إلى الإصلاح والتيسير، دون منهجية واضحة ترسم خطوط الإصلاح وكيفيات الوصول إليه.

الثانى:

يتمثل فى نمط من الإصلاح شائع معروف، يتوجه فى الأساس إلى مسائل جزئية من قواعد اللغة، كما فى اقتراح بعضهم الاستغناء عن بعض أوجه الإعراب، أو اقتراح بعض آخر بالتنسيق بين أبواب النحو، بضم بعضها إلى بعض.

الثالث:

وهو أخطرها وأعمقها أثرًا فى قواعد العربية فيما لو أخذ به، حيث يلح أصحاب هذا النمط فى الإصلاح على ضرورة حذف أبواب كاملة من الصرف والنحو، كباب الإعلال والتثنية ونون النسوة وبابى التنازع والاشتغال.... إلخ.

وهكذا نرى أن الإصلاحيين ذهبوا مذاهب شتى، ولم يلتقوا على طريق واحد يمكّنهم من الوصول إلى تشكيل بناء أو نظام متسق العناصر والمكونات، كما ذكرنا أنفًا، يصلح بديلاً أيسر وأسهل للبناء أو النظام التقليدى الموسوم عندهم - وعند غيرهم - بالصعوبة والتعقيد.

ومناداة بعضهم بالاستغناء عن بعض الجزئيات أو بحذف أبواب كاملة من قواعد اللغة، صرفها ونحوها، تخفيفًا على الناشئة أو تطويرًا للغة، مناداة تمثل اتجاهًا غير مقبول علميًا. إن هذا النهج فى النهاية يعنى مجرد تشويه البناء القديم (القواعد التقليدية) وخلخلة جدرانه بنزع بعض لبناته والقذف بها إلى الهواء، كما يعنى عدم صلاحيته لتشييد بناء أو نظام جديد. وهو بهذه الصفة لا يمكن حسبانه تيسيرًا أو تطويرًا بحال. لقد فات هؤلاء الإصلاحيين أن قواعد اللغة لا

تحـذف بحال من الأحـوال، مهـما كـانت درجة صـعـوبتهـا، وليس هذا النهج من التطوير فى شىء. ذلك لأن هذه القواعد موجودة. شئنا أم لم نشأ، فهى مستقرة فى البناء، ولهـا دورها فى الاستـعمـال اللغـوى القديم، كـما هو الحـال فى الموروث المكتوب على فترات الزمن المختلفة، ولها أيضًـا حضور فى الاستعمال الحديث فى سياقات اجتمـاعية ومناسبات علمية معينة.ليـعلم الناس أن القواعد (وغيرها) لا تحذف بالقوانين أو القرارات، كـما لا يمكن فرضها فرضًا. وإنما التطوير والتـيسير يأتى ويقع (وهو حـادث بالفعل الآن)عن طـريق أهل اللغة أنفـسهم، بكيـفيـات تعاملهم مـعها واسـتخدامـها، كأن يتـجاوزوا شيـئًا من القواعـد أو الأساليب، ولا يوظفوها، من وقت إلى آخـر لسبب من الأسباب، حـتى تختفى أو تكاد، فيـصيب اللغة شىء من التغيير أو التطوير (السطحى) الذى لا يلبث أن يعود إلى أصله، إذا ما قابلته الظروف المناسبة لهذا العود.

إن صعـوبة اللغة أو صعوبة قـواعدها كلها أو بعـضها لا ترجع إلى طبيـعة اللغة، أو طبيعـة القواعد. إنما ترجع فى الأساس إلى فقدان الألفـة بين اللغة ببنائها التقليـدى وأهل اللغة أنفـسهم، بالابتعـاد عنها وهجـرها والكف عن الحوار معـها والائتناس إليهـا، فتبـعد الشقـة بين القبيلين، وكل يشكو صـاحبه إلى درجـة تحيل الأمر تنابذًا وافتراقًا.

ومعنى هذا كله فى النهاية أن صعوبة القواعد التى يريدون تيسيرها لا ترجع إلى القواعد ذاتها، بقدر ما ترجع إلى طرائق تقعيدها، ومناهج هذا التقعيد. وبعبارة أوجز وأفحص بيـانًا نقول : إن الحل الصحيح والأمثل للتـيسير سبـيله الوحيد هو تيسير التقعيد لا القواعد.

وتيـسيـر التقـعيـد – فى رأينا – إنما يكون برسم خطة أوسع وأشـمل، ذات حدود مرسـومة وضوابط معلومـة، تشكل فى النهاية نظامًا جديدًا أو بنـاءً متكاملاً لقواعد الـلغة كافة : بناء تشـيده هندسة واعية، تـقيم أساسه وتحدد جـدرانه وتعين

جنباته ومكـوناته . وذلك بتشكيله تشكيـلاً عربيًا خـالصًا مستـمدًا مـادته من البناء القديم (القـواعد الموروثة)، منظومًا بهندسـة منهجيـة حديثة، تعكس مـا يلفه من ظروف الحاضر وأحواله.

هذا البناء الجديد المأمول صنعـه يمنحنا الحسنين معًا: القديم بأصـالته ومادته والحديث بطرافته وجدته فى البـناء والتشكيل والتكوين. هذا البناء المنشود الموسوم بتلك الخـاصتين (الأصـالة والجدة) هو مـا ينبغى على الإصـلاحيين والمهنـدسين الجدد إقـامتـه وإعداده مـوئلاً للراحـة والسكن، يأوى إليه المتـعبـون الشاكـون من عشوائية الهندسة فى البيت القديم.

والفوز بهـذا البناء الجديد لا يكون بالصراخ والشـكوى من القديم ولا بنزع لبنات من هذا القديم وإحـلال لبنات جديدة محلهـا، فيبـدو البناء مشوّهًا مرقـعًا، ينفر المتعبون الشاكون من الإيواء إليه أو السكن فيه. وإنما يكون بالعمل الجاد المبنى على خطط ورؤى واضـحة، تـضعـها مـجـموعـة أو هيئـة من أهل الاخـتصـاص ومهندسى اللغة الثقات العارفين بالقديم خير معرفة، المرشحين بخبرتهم وتجاربهم الواقعية للقيام بهذا العمل القومى النبيل لصالح اللغة وصالح أهليها على حد سواء.

ثالثاً : الدعوة إلى العامية:

نأتى بعد إلى ثالثة الأثافى المتمثلة فى مناداة غيـر الواعين باتخاذ اللغة العامية سلوكًا لغويًا عامًا، لأنها - فى نظرهم - الأقرب منالاً، والأيسر استخدامًا، والأكثر وفاءً بحـاجات الاتصال والتوصـيل اللغوى بين الجمـاهير العريضـة. ونحن نقول نعم، ربما ساغ لهذه الطائفة من الناس الدعوة إلى هذا الاتجاه المحروم من بُعد النظر وعمق التـفكير. نحن لا ننكر وجـود العامـية، كمـا لا ننكر دورها فى مجـتمعـها. ولكن يبقى السؤال الذى غابت الإجابة عنه من هؤلاء الداعين إلى هذا الاتجاه. فلنا أن نتساءل : أية عامـية نختار؟ العاميات فى العالم العـربى بالعشرات، بل بالمئات، تعد، وكل واحـدة منها لهـا من يناصرها ويؤثرها على غـيرها. وإيثـار عامـية على

أخرى معناه التردى فى ظلمات الفرقة وضعف الانتماء إلى العروبة، بل ربما يؤدى إلى فقدان هذا الانتماء جملة وتفصيلاً، فيصبح العرب أقوامًا متجاورين أرضًا، متباعدين ومتنابذين فكرًا وثقافةً واتجاهًا، بل ربما انزلقوا وزحفوا إلى حظيرة الأعداء، شأنهم فى ذلك شأن أهل الجوار أصحاب تلك اللغة التى كانت فى الأصل مع غيرها من اللغات تنتمى إلى أصل واحد، هو الأصل السامى، أو العربى على بعض الآراء التى نميل إليها.

وبعد:

قد يكون من المفيد فى هذا السياق، سياق النزعة إلى الإصلاح ، أن ندعو الجميع إلى النظر بعمق إلى ماهو أوسع وأشمل مما يلف حياتهم من مشكلات حقيقية تهدد وحدتهم وتنذر بذوبان قوميتهم، وإلى الكف عن هذه الثرثرات السطحية التى لا تفيد فى قليل أو كثير. معلوم أن العالم الآن يواجه تحديات فكرية وثقافية متضاربة تضارب الاتجاهات العالمية وتنافرها، فى جو طغيان «العولمة» (أو الأمركة) ومحاولة سيطرتها على جميع البقاع والأصقاع من بلدان العالم شرقه وغربه.

وقد أصابنا نحن العرب شيء غير يسير من هذا الطغيان وتلك السيطرة. ظهرت آثار هذا الوضع غير المرغوب فى كثير من أنماط سلوكنا وتوجهاتنا الاقتصادية والاجتماعية، بل وفى موقعنا الفكرى والثقافى. ويهمنا فى هذا المقام الإشارة إلى ما مسّ فكرنا وثقافتنا من خلط وتشويه، وما أصاب عماد هذا الفكر وتلك الثقافة من الاضطراب وفقدان هوية، ونعنى بذلك اللغة القومية - لغة العرب.

إن لغتنا تشكو الضعف والخلط البادى فى مكوناتها، مفردات وأساليب، وفى طرائق أدائها . العربية الفصيحة الصحيحة لا وجود لها فى أدائها المنطوق إلا

فى زوايا ضيقة،مقصورة على نفر من الناس الذين يضطرون اضطرارًا إلى التعامل بها بحكم مواقعهم التى دُفعوا إليها دفـعًا، وفاءً شكليًا بالعادات والتقاليد الموروثة. وحتـى هذا النفر القليل من النـاس كثـيرًا مـا يخلطون ويقعـون فى دائرة الخطأ فى كلامهم، منطوقًا كان أم مكتوبًا.

أما فـى سائر المواقع الأخـرى على المستـويين الخاص والعـام جمـيعًا، فـإننا نُواجه بوضع عجـيب غريب : عربية كـسيحة لا طعم لها ولا ذوق، مـلوثة بشتات من الكلم وعشوائية فى البناء والأداء.

وفى عبـارة موجزة نقـول : إن لغتنا اليوم – بوصـفها لغـة القوم أجمـعين – تنعى حظها وتأسى لحالها وحـال أصحابها الذين انفضوا من حولهـا وتركوها نهبًا للضياع والذوبان وسط أمواج عاتية من تنافر اللسن وتنابذ البيان.

هناك مشـكلات حقيـقيـة تواجه العـربية فى عقـر دارها، وتستـوجب النظر الدقيق والدرس العميق لعلاجها أو لتخـفيف حدتها البادية على مرأى ومسمع من أهليها. نذكر فى هذا المقام اثنتين من هذه المشكلات.

المشكلة الأولى:

تتمثل فى سيطرة العاميات بلهجاتها ورطاناتها على الشارع العربى، بل وفى زحـفهـا إلى دوائر العلـم وفـى قاعـات دروس العـربية فى مـراحل التـعليم العـام والكليات والمعاهد المتخصصة.

المشكلة الثانية:

ينبئ عنها ذلـك الاتجاه غير المحـمود من بعض المثـقفين نحو «التـغريـب» فى سلوكهم اللغوى.

أما بالنسبة لسيطرة العاميـات على اللسان العربى فى المواقع العامة والخاصة فذلك أمر يحتاج إلى نظر واعٍ دقيق. لا يسـتطيع أحد أن يزيح العامية أو أن يقضى

عليها بإصدار القوانين أو الأوامر من الهيئات أو السلطات ذات الشأن. ذلك أن ظهور العاميات بلهجاتها ورطاناتها المختلفة أمر طبيعى فى كل زمان ومكان، يرجع إلى عوامل ثقافية واجتماعية. وبقدر ما يكون التنوع أو التنافر بين الأنماط الثقافية والأبعاد الاجتماعية فى البيئة المعينة ، يكون التنوع والاختلاف فى السلوك اللغوى. والملاحظ على كل حال أن التنوع أو التنافر فى السلوك اللغوى قد يقل أو تخف حدته فى البيئات التى تتمتع بأنماط ثقافية وأبعاد اجتماعية متقاربة ذات سمات وصفات أساسية مشتركة.

ولسنا نبالغ إذا قررنا أن المجتمع العربى الآن محروم من هذا التقارب الثقافى والاجتماعى ، ومن ثم لا غرابة فى هذا التصارع اللغوى الذى يشى بانتصار العاميات وسيطرتها على السوق اللغوية العربية.

ما الحل إذن؟ الأمر يحتاج إلى فكر واعٍ صادق مع النفس ومع الواقع، يرسم ويخطط، أو أن يقترح ما من شأنه أن يعدل بين العربية والعاميات، أو قل : (وهو الأوفق والأولى) أن ينتصر للعربية بوصفها لغة القوم أجمعين، وبوصفها أيضًا العماد الأساسى لوحدتهم وبناء شخصيتهم.

وسبيل ذلك له اتجاهان متكاملان. الأول: تأكيد الانتماء إلى « العروبة » بالعمل على التقريب بين الثقافات المتصارعة أو توحيدها إن أمكن، وبمحاولة تقريب الشقة بين الطبقات الاجتماعية موقعًا، سلوكًا.

وهذا الاتجاه الأول ليس من السهل تحقيقه بين عشية وضحاها. إنه يحتاج إلى وقت طويل يدرج فيه المسئولون وأولو الرأى والفكر فى المواقع المختلفة والتخصصات المنوعة إلى رسم الخطوط والخيوط التى تفى بتحقيقه.

ومن هنا كان اقتصارنا فى هذا المقام على الإشارة إلى الاتجاه الثانى الذى نحسبه طريقًا واقعيًا وفاعلاً فى الوصول - قدر الإمكان - إلى الأخذ بيد العربية وتمكينها من موقعها الطبيعى لصالح الانتماء إلى « العوربة ».

هذا الاتجاه الثانى تتلخص مسيرته فى ضرورة نصرة العربية والوقوف بجانبها ؛ بحيث تتسع مجالات استخدامها بتضييق الخناق على العاميات وزحزحتها إلى دوائرها الضيقة ذات السياقات الاجتماعية الخاصة. إنها هناك، ولكن ينبغى العمل على تحجيمها، بحيث لا تغزو العربية وتحتل مواقعها المقررة من وجهة النظر القومية، وإن جاز التعامل بها (وهو واقع بالضرورة) فى بيئات أو حالات خاصة، كما هو واقع الحال بين أصحاب الحرف والصنائع ومن إليهم، وكما هو دارج - شئنا أم لم نشأ - فى الشارع العربى العام.

أما نصرة العربية والوفاء بحقها فى دنيا « العوربة » فهو أمر جد مهم، ويحتاج إلى تكاتف الجهود من الخاصة والعامة بلا فرق.

فنحن الآن فى حاجة ملحة إلى وسيلة اتصال مشتركة، تجمع العرب على لسان واحد وفكر واحد، يحمى هويتهم ويميز قوميتهم وموقعهم فى دنيا الله، وليس فى مقدور أية عامية عربية أن تقوم بهذا الدور. ولغتنا العربية - مرآة تراثنا وحضارتنا وثقافتنا على مر العصور - هى العامل الأساسى فى هذه الوحدة وتلك الحماية وذاك التميز. فعلينا إذن أن نفى بحقها بالعمل على تنشيطها وتنميتها، رأسيًا بتفعيلها وتعميق أصولها وإثرائها بالجديد المبتكر، وأفقيًا بنشرها وتوسيع دائرتها حتى تصبح عادة مألوفة للقوم أجمعين. وليس فى هذه السبيل صعوبة أو استحالة. فما علينا إلا أن نأخذ بتلك العوامل والسبل التى من شأنها أن تصل بنا إلى هذه الغاية المأمولة. هناك عوامل وسبل كثيرة مباشرة وغير مباشرة يمكن الأخذ بها للوصول إلى تحقيق هذا الواجب القومى، واجب الدفاع عن العربية بتخليصها من هذا الوضع غير المقبول الذى صنعه أهلها.

من هذه العوامل والسبل ما يأتى:

١ - توسيع دوائر استعمالها نطقًا، إذ إن التجارب الفعلية تؤكد أن من أهم عوامل اكتساب اللغة (أية لغة) أو تجويدها وصقلها، يكمن فى اتباع ذلك المبدأ الذى وضعناه نحن والتزمنا بنشره هنا وهناك، وهو «اسْمَعْ وأَسْمِعْ».

ومعناه أنك إذا رمت اكتساب لغة ما أو أردت تنميتها أو صقلها وتهذيبها، فما عليك إلا أن تحاول الاستماع إليها مراراً وتكراراً، حتى تستقر مادتها وتثبت قواعدها فى الذهن، وعليك بعد أن تمتاح من معينها وتولِّد من مادتها بتوظيفها جهرًا، بحيث تُسْمِع نفسك ومن حولك. وخير دليل على صحة ما نقول ما يجرى مع العامية أو العاميات. نحن لم نتعلمها بطرق التعليم المألوفة، ولم نتلقّ فيها دروسًا مرسومة، ومع ذلك نستخدمها بطلاقة وإتقان ونستوعب مادتها وأفكارها. وما كان ذلك إلا بالسماع المكرور والإسماع الدائم.

٢- مبدأ السماع والإسماع لا يتحقق ولا يكون إلا بوجود قدوة صالحة ذات كفاية، تُتخذ مثالاً مرشحًا للاقتداء لمن شاء أن يكتسب جديدًا، أو أن يصقل أو يجود ما لديه من محصول لغوى.

والمفروض أن القدوة تبدأ من البيت، وتتأكد فى دور التعليم وفى المواقع اللغوية ذات السمة القيادية، كالرؤساء وأصحاب القرار وأهل الاختصاص من مدرسين ودعاة وإعلاميين ومن على شاكلتهم. ولكن أين هؤلاء جميعًا من مواقع القدوة اللغوية التى يمكن حسبانها نموذجًا فى التعامل اللغوى العربى الفصيح الصحيح؟

٣- المسئولية الأساسية فى نصرة العربية ورعايتها تقع على دور التعليم . ذلك أن هذه الدور هى نقطه الانطلاق إلى التربية والتثقيف العام والخاص، وإعداد الأجيال المتلاحقة لتشكيل بنية قومية لها من الخواص والسمات ما يؤكد هويتها ويحميها من عوادى الزمان وأحداثه، ويرشحها فى الوقت نفسه للصمود ومواجهة متغيرات الحياة، ويتعامل معها بوعى وبصيرة، بحيث لا تهتز هذه البنية القومية ولا تسقط أركانها.

ومن المؤكد أن قوام هذه الخواص والسمات التى تشكل هذه البنية هى اللغة القومية المتمثلة فى العربية الفصيحة الصحيحة. ومن هنا كان من الحتم على هذه الدور - بحكم موقعها ومسئوليتها - أن تتعامل بهذه اللغة فى مجمل أنشطتها

وواجباتها التعليمية، إذا كان لها ان تنجز الآمال المعقودة عليها، وأن ترشح نفسها قدوة صالحة فى سبيل نصرة العربية وتوسيع دوائر استخدامها .

هذا هو المفروض، ولكن الواقع الملموس يجرى على غير ذلك جملةً وتفصيلاً. ما زالت العامية تطغى على الجو اللغوى العام هناك، بل ما زالت هذه العامية تلوث ألسنة الكثيرين من مدرسى اللغة العربية أنفسهم. نراهم يقدمون مواد اللغة العربية بلغة كسيحة محشوة باللهجات العامية، فلا المواد نالت حظها من التقديم، ولا الطلاب أفادوا شيئًا يذكر من حقائق هذه المواد،ولا استقر فى أذهانهم ما نأمله أو نتوقعه من حقائق اللغة العربية.

إنه لوضع غير مقبول، يحتاج إلى وعى وصدق مع النفس، وإخلاص فى أداء الرسالة. ربما يُعالج هذا الوضع نوع علاج بإعداد المعلمين إعدادًا علميًا وتربويًا كافيًا، وباهتمام المسئولين بموقع اللغة العربية فى جداول المواد، من حيث الوقت ونوعية الفروع ومناهجها وطرائق تقديمها.

وفى رأينا أن المطالعة الجهرية من خير السبل وأصلحها فى التثقيف اللغوى المنشود، حيث يقرأ الطلاب فيسْمَعون ويُسْمِعون، وبذلك يكتسبون جديدًا صالحًا، كما يكتسبون الخبرة والدربة على أداء هذا المَكتسب نطقًا.

٤- وسائل الإعلام - وبخاصة الإعلام المنطوق المتمثل فى الإذاعة والتليفزيون - لها دور بالغ الأهمية فى نصرة العربية وتنميتها ونشرها هنا وهناك بلا تعب أو نصب.

هذا الإعلام المنطوق - بجهازيه - يمثل أعلى درجات القدوة فى التثقيف اللغوى فى دنيا العرب، حيث إننا قوم نسمع ولا نقرأ. هذا بالإضافة إلى أنه موقع عام ذو اتصال وثيق بالعامة والخاصة، وله منزلته الأدبية بين الجماهير ، بوصفه ملكًا للجميع، ولسان القوم كافة بلا فرق.

ولكن لنا أن نتساءل : ما حال السلوك اللغوى فى هذين الجهازين؟ فى الحق وبالحق نقول: إن الإذاعة تحاول أن تنضم إلى صفوف المنتصرين للغة القومية،كما

تحاول أن تكون مثالاً صالحًا يقتدى به. يظهر ذلك فى جملة من البرامج ، كنشرات الأخبار واللقاءات العلمية والأدبية، وتناول البيانات الرسمية، وما إلى ذلك مما له خصوصية تقليدية رسمية أو علمية. وربما يشهد لهذه المحاولات المشكورة فى سبيل الوفاء بموقع الإذاعة ومسئوليتها القومية، أن تنضم إلى قافلة الفرقاء المخلصين الذين نادوا بجعل عام ٢٠٠٦ عامًا للغة العربية. ومقصود هذا النداء إثارة الوعى لدى الكافة بأهمية لغتهم والاحتفاء بها، نظرًا وتطبيقًا، بالتعامل بها وتخليصها مما يشوبها من خلط واضطراب . وقد نجحت الإذاعة -إلى حد مقبول- فى تطبيق هذا النداء بتخصيص برامج معينة فى شبكاتها المختلفة، لتناول مشكلات العربية وتوجيه الجماهير إلى الانتصار لها، والدعوة إلى عقد الألفة بين القبيلين، بالممارسة الفعلية على وجه صحيح.

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نشير بالاعتزاز إلى منهج إذاعة القرآن الكريم فى التزامها اللغة العربية الفصيحة الصحيحة فى كل برامجها، وحرص رجالها على الوفاء بهذه المسئولية التى ترشح نفسها للقدوة والمثل الطيب. إنهم فتية آمنوا بربهم، أكدوا إخلاصهم فى القيام بواجبهم على خير وجه.

هذه جهود تذكر فتشكر، ولكن يبقى الوفاء بالمسئولية الإذاعية فى عمومها منقوصًا. ذلك أن كثيرًا من البرامج الإذاعية فى الشبكات المختلفة تؤثر العامية وتتفنن فى أدائها واختيار صنوفها. هذا بالإضافة إلى أن الأداء بالعربية الفصيحة فى مواقعها التقليدية لا يخلو من هنات واضحات من اليسير علاجها، لو كان الإذاعى ذا خبرة ودربة كافية فى التعامل مع العربية من حيث النظر والتطبيق.

ومهما يكن الأمر، فإن السلوك اللغوى بالإذاعة أفضل وأجود وأكثر قبولاً مما يجرى فى التليفزيون . ففى هذا الجهاز الساحر الخطير، قليلاً أو نادرًا ما تتلقى الأسماع منطوقًا عربيًا فصيحًا صحيحًا، وإن واتتك الفرصة وسمعت هذا العربى، ألفيته ملحونًا مخلوطًا. أما العامية بكل صنوفها وألوانها فيبدو أنها صاحبة البيت

والمسيطرة عليه، شئنا أم لم نشأ. فأنّى للتليفزيون أن يكون قدوة فى السلوك اللغوى ، أو التثقيف المبتغى فى مجمل برامجه؟

٥-وتبقى الإشارة إلى السلوك اللغوى من المسئولين وأصحاب الرأى من سياسيين ومتخصصين ومثقفين ومفكرين. ليس من السهل أن نعرض لهذا السلوك بالتفصيل، وإنما يمكن إيجاز القول فيه بأنه سلوك عشوائى، غير ملتزم بحدود أو ضوابط . كلهم فى مواقعهم القيادية يخلطون الفصيح بالعامى، وإن حاولوا الفصيح أو نوعًا منه حشَوْه بالأغلاط والأخطاء. ومن اللافت للنظر أن هذا السلوك له وجود عند بعض المتخصصين ومدرسى العربية، وعند الدعاة وخطباء المنابر، وهو أمر معروف مشهور. وبهذا تهتز قدوتهم ويخسر سامعوهم ويضعف تأثيرهم.

وندلف الآن إلى المشكلة الثانية التى تواجه العربية، والمفروضة عليها فرضاً من أهلها، دون مسوغ أو ضرورة. تلك هى مشكلة«التغريب» المتمثلة فى اتجاه بعضهم إلى حشو كلامهم العربى الكسيح بألفاظ وعبارات أجنبية، ليس لها مقتضًى من الحال أو المقام شكلاً وأداءً. يلاحظ هذا السلوك ممتد الأبعاد هنا وهناك بين الكافة بلا فرق بين العامة والخاصة، شيبًا وشبابًا على حد سواء.

والملاحظ أيضًا أن هذا الحشو الغريب يأتى نافرًا غير مقبول، إذا إن أكثر صانعيه لا يستطيعون نطقه نطقًا صحيحًا، كما لا يدركون معانيه الدقيقة.

ولهذه الظاهرة غير المقبولة أسباب كثيرة، يكفى أن نشير إلى أهمها فى إيجاز موجز:

١- يبدو أن جو «العولمة» (أو الأمركة) وما قدر له من انتشار وسيطرة، أغرى الكثيرين من العرب، وجذبهم إلى الأخذ بقبس منه ، ولو فى صورة شكلية. يفصح عن هذه الصورة الأخذ بنصيب من اللسن الداعية لهذا الجو والحاملة على جناحيها أفكاره واتجاهاته، وعلى القمة من هذه اللسن اللغتان الإنجليزية

والفرنسية، لما لهما من موقع ملحوظ فى دنيا العرب، كما تشهد بذلك مسيرة التاريخ ومناهج التعليم فى الماضى والحاضر.

٢- السبب الثانى ذو اتصال وثيق بالأول، بل هو قرينه، أو قل - بعبارة أدق - إنه داعم ومؤكد له. ذلك ان انتشار المدارس والكليات الأجنبية بهذه الكثرة غير المفهوم سرها، له أثره البالغ فى الانسياق إلى « التغريب » فى السلوك اللغوى العربى. ومعلوم أن التدريس فى هذه المدارس والكليات يقوم فى الأساس على اللغتين الإنجليزية والفرنسية، مع الدفع باللغة العربية (لغة القوم أجمعين) إلى خندق ضيق يتحاشى الطلاب الاقتراب منه أو التماس ركن منه.

٣- فى رأينا أن التغريب اللغوى (بل وعشوائية السلوك الاجتماعى فى عمومه) يرجع فى أساسه إلى التغريب الثقافى. ذلك أن الثقافة العربية الآن يشوبها الخلط والتنافر، ليس لواقعها «حوكمة» تضبط أبعادها، وتميزشخصيتها وتؤكد بنيتها القومية. المجتمع العربى منذ فترة غير قصيرة تملأ أجواءه أنماط وألوان مختلفات من الثقافات غير المؤتلفات، المحرومة من الأساسيات التى ترشح نفسها لبناء ثقافة متكاملة البناء والطلاء. قوم ينزعون إلى القديم، تعصبًا محرومًا من البصر والبصيرة فى طبيعة هذا القديم ومدى مناسبته للحاضر، وآخرون يلهثون وراء الحديث (أو ما يظنونه كذلك) متسابقين إلى الأخذ بمظهره الخادع البراق، متغافلين أو غير مدركين لمخبره أو حقيقته ومدى صلاحية الأخذ منه أو الاقتداء به على الوجه الذى يلائم الظرف أو الحال الذى يلفّ حياتهم وأنماط سلوكهم.

وبعبارة أخرى نقول : إن الثقافة العربية ثقافة مهزوزة فاقدة الهوية والخصوصية التى تميزهم وتحدد موقعهم فى دنيا البشر : قوم ينزعون إلى الشرق وآخرون إلى الغرب، وفريق ثالث لا يدرى موقعه ، ولا يدرك كيانه، فيتخبط

ويخلط فى محصوله الثقافى، فيكون التخبط والخلط فى مجمل مساراته الاجتماعية، وعلى القمة منها سلوكه اللغوى.

والرأى عندنا أن ما أصاب ثقافتنا ولغتنا من خلط وضعف وهوان يرجع فى أساسه إلى العرب أنفسهم. تفرق القوم وصاوروا شيعًا، كل حزب بما لديهم فرحون، وفى إطار اتجاهاتهم وأفكارهم الحزبية يسيرون. نسوا أو تناسوا ما كان بينهم من صلات ووشائج قربى، تلم الصفوف وتوحد المسيرة والغايات ، وتصنع منهم أمة واحدة موسومة بالقومية العربية.

وكان ما كان : تنابذ بالألقاب وتنافر أو تعارض فى الاتجاهات، فضعف الانتماء إلى «العوربة» وهرول الفرقاء يمنة ويسرة نحوالآخر، يأخذون منه أو يقلدونه دون تفريق بين الغثّ والسمين مما يأخذون أو يقلدون، فلا إلى بيتهم العربى ينتسبون ولا بالآخر يلحقون ولا إليه ينتمون. الارتماء فى جو العولمة (أو الأمركة) الغامض دون وعى أو بصيرة نزعهم من أصولهم وشَتَّتَ هويتهم. والمبالغة فى إنشاء المدارس والجامعات الأجنبية لم تعالج عَوَرَهم، بل زادت من أدوائهم، وخلخلت بنيتهم الثقافية واللغوية.

التعليم فى هذه المدارس والجامعات المنتشرة فى كل البقاع والأصقاع فى الأرض العربية،يجرى باللغات الأجنبية فى الأساس، وباللغة الإنجليزية على وجه الخصوص، وكأنها فى حسبانهم لغة الأم. يحدث هذا، فى حين أن العربية – لغة الأم الحقيقية – تطرح بعيدًا وتلقى إلى الهامش إن كان لها وجود أصلاً.

واللغة – كما هو معلوم – هى الإنسان نفسه. تشكل ثقافته وترسم اتجاهاته، وتغذى أفكاره. واختلاف اللغات يؤدى إلى اختلاف كل هذه اللبنات التى تشكل هذا الإنسان. ومن هنا لا نعجب لما يجرى فى الأوساط العربية – وبخاصة بين الشباب – من اختلاف الرؤى وتنازع الثقافات والخلط بين اللغات. إن جمعًا غير

قليل منهم يحسبون العربية لغة ثانية وينظرون إليها نظرة دونية وإلى لغة الآخر نظرة فوقية. إنهم - على ما يقول بعض المفكرين المخلصين - أشبه «بجالية أجنبية» تعيش على أرض عربية، ويحملون الجنسية العربية، ويراودهم الأمل فى الحصول على جنسية الآخر.

لا ننكر بحال أهمية اللغات الأجنبية، حتى نزيد من معارفنا، ونلقح ثقافتنا. لكن على أساس أنها نوع من الطلاء الذى نلون به البناء. هذا البناء هو اللغة القومية، لغة العرب أجمعين.

وإلا يكن الأمر كذلك، فأقول مرة ومرات : أخشى أن ينفرط العقد العربى وتتناثر حباته ويعبث بها العابثون أو تلوثها أقدام الحاقدين المفسدين فى الداخل والخارج ويؤكد ذلك المعنى ما قاله واحد منهم:

إن واقعنا اللغوى الآن يصوره خير تصوير ما قاله عربى قديم فى حالة من اليأس التى سادت وتسود المجتمع العربى؛ ونصيح به اليوم، (بتغيير خفيف فى إحدى كلماته المكررة فى شطرى البيت) :

هدى الله قومى إلى سبيل الرشد وأصلح بالهم فى الحال والمآل.

اللغة العربية والإعلام المنطوق
الواقع والمأمول

اللغة العربية بصورتيها المنطوقة والمكتوبة المقروءة فى وضع غير لائق بمكانتها وبأقدار أهليها الآن . إنه وضع مشوّه بأخلاط من الكلام المتداخلة سماته وصفاته، بحيث لا تدرى هويته وخواصه المميزة: عربى كسيح ولهجات ورطانات نافرات ناشزات محشوات بكلمات وعبارات أجنبية، دون ضرورة أو داعٍ ، إظهارًا للفوقية، وتطلعًا زائفًا إلى الامتياز.

ومن اللافت للنظر أن هذا الخلط أو الحشو ليس مقصورًا على فئة من الناس دون فئة، وإنما أصبح الآن نهجًا لغويًا مألوفًا بين العامة والخاصة، تلمسه فى كل مكان فى العالم العربى بأسره : فى البيت والشارع ودور التعليم بمراحله المختلفة بدءا بالتعليم العام وانتهاءً بالدرس الجامعى المتخصص.

يتقوّل بعضهم ويتوهمون أن الوضع الراهن للغة العربية هو الذى أوقعهم فى هذه العشوائية اللغوية. ذلك، أن اللغة فى صحيح معناها الآن. - فى نظرهم - لغة جامدة لا تفى بالتعبير عن حاجاتهم وتوجهاتهم فى هذا العصر الهائج المائج بالعلوم والمعارف والثقافات التى يستعصى على هذه اللغة تلبية مقتضياتها وأفكارها المتجددة يومًا بعد يوم. هذا بالإضافة إلى أن هذه اللغة عصيّة المنال على غالبية الشعوب العربية، لا نعزالها وفقدان الإلف بينها وبينهم لصعوبتها وتعقيد قواعدها وأحكامها.

نقول ، نعم هذا صحيح وواقع ملموس. ولكن هذا الاتهام بكل صوره ووجوهه إنما يوجه إلى أهليها، واللغة براء منه قولاً واحدًا، إذ إن كل ما أصابها ولحق بها من جمود وعوامل ضعف وتعقيد وانعزال، يرجع حتمًا وبكل تأكيد

إلى أصحابها وموقفهم منها. إنهم هم الدين عزلوها، فلم يتعاملوا بها ولم يتحاوروا بها ومعها، ولم يحاولوا الائتناس بها وإليها، وقذفوا بها إلى مأزق الإهمال، فجمدت وانعزلت، تبكى حظها الذى فرض عليها، إهمالاً وتهاونًا أو جهلاً بحقيقتها. فات هؤلاء القوم إدراك حقيقة اللغة وطبيعتها. اللغة لا تعيش وحدها، ولا تحرك نفسها، ولا تصحح مسيرتها، ولا تنمى بناتها وثروتها، ولا تمكن نفسها من الموقع المرغوب بانتشارها فى بيئتها. إن الذى يصنع ذلك كله ويُسأل عنه هم أصحابها.

اللغة ليس كائنًا حيًا ـ كما يزعم غير العارفين ــ ترعى شئونها وتطور نفسها بنفسها. إنها خاصة إنسانية، ينماز بها الإنسان: تلازمه وتسير معه وتتسم بسماته قوة وضعفًا، وانتشارًا أو انعزالاً.

نعم، إنها قابلة للتطور، ولكن هذه القابلية لا تكون ولا تتم إلا بتطور حياة أهليها ومستعمليها، وبالتعامل بها ومعها فى مسيرة حياتهم بخيرها وشرها، فَنَعْتُ اللغة بأنها « كائن حى » نعت فيه تجوّز، أو لعله إشارة إلى ما قررنا، وهو قابليتها للتطور.

ويبقى السؤال : من المسئول عن هذا العور والقصور فى لغتنا الآن ؟ وما السبيل إلى صنع شىء يفى بحق هذه اللغة، أساس القومية العربية، وركيزة الهوية للعرب أجمعين؟

المسئولية تقع على الجميع بلا فرق، وإن اختلفت درجاتها. وأهم درجات هذه المسئولية يتمثل فى التعامل باللغة نطقًا قدر الإمكان. وأعلى درجات هذه المسئولية فى نظرنا يتمثل فى الإعلام المنطوق بخصوصيته ومكانته فى التثقيف اللغوى وبخاصة فى بيئة حُرِمَ أغلب أهليها من الكتابة والقراءة...إلخ.

وقع اختيارنا على الإعلام المنطوق، لأنه المحور الأساسى فى سياق الكلام عن اللغة وما يلفها من ظروف صالحة أو طالحة، تسمها بالجودة والتمكين أو

الضعف والتهوين. ذلك أن اللغة في عرف الثقات من الدارسين هى اللغة المنطوقة. فاللغة المنطوقة هى الكاشفة - بحق - عن بيئتها وما يجرى فيها من سلوك وتصرفات حياتية، ثقافيا واجتماعيًا، واقتصاديا... إلخ. وهى بذلك المرآة العاكسة لأفكار أصحابها وتوجهاتهم التى من شأنها الإنباء الواضح عن مدى اتفاقهم أو اختلافهم فى مسيرة الانتماء وتحقيق الهوية التى تميز قومًا من قوم، وتشى بوحدتهم أو تفرقهم إلى شيع متناثرة فى منطقة جغرافية تحمل اسمهم.

من هنا كان الاهتمام الكبير من اللغويين الاجتماعيين باللغة المنطوقة. إنها فى نظرهم من الناحية اللغوية الدليل الأوفى والأدق فى تعرف حقيقتها قوة وضعفًا، توحّدًا وتفرقًا، وإنها من الناحية الاجتماعية هى الكاشفة عن أوضاع أهليها من وحدة الانتماء أو عشوائية هذا الانتماء التى تتمثل فى عشوائية الطبقات الاجتماعية فى البيئة الجغرافية الواحدة.

ومعلوم أن اللغة مكتسبة. ومن البديهى أن هذا الاكتساب يحتاج إلى قدوة، وعلى قدّ هذه القدوة وما تتعامل به من المستويات اللغوية يكون الاكتساب صحيحًا أو فاسدًا أو عاميًا، أو ملوثًا محشوًا بالأخلاط من الكلام، وفقًا لمستوى السماع والنطق. ويؤكد قولنا هذا ما يجرى بيننا وبين العاميات : نحن نكتسبها، بل نتقنها، دون معلم أو عقد دروس فيها. كل الذى يحدث أننا نسمعها مرارًا وتكرارًا، ونؤديها نطقًا فى مواقعها. نسمعها ليل نهار فيلتقطها الذهن ويخزن حقائقها وظواهرها القابلة للتفعيل الحقيقى بالنطق عند الحاجة فى سهولة ويسر.

ومصادر القدوة اللغوية كثيرة منوعة، تبدأ بالأم والأسرة وتنتهى بالتعليم بمراحله المختلفة. ولكنا نرى أن أهم قدوة وأعلاها قدرًا فى إطار تفسيرنا للحقيقة اللغوية هى الإعلام المنطوق.

ونعنى بالإعلام المنطوق فى هذا السياق الإذاعة بوسيلتيها الراديو والتليفزيون. ذلك أن الإذاعة بوسيلتيها هاتين تقع موقعًا فريدًا بين وسائل الإعلام

فى مجال التثقيف والإرشاد والتوجيه والتعليم كذلك. إنها فى الحق مدرسة الجماهير، تخاطب الناس وتتعامل معهم فى كل مكان وآن، بقطع النظر عن حرفهم وصنائعهم وأسنانهم وثقافاتهم وبيئاتهم الاجتماعية. فهى بذلك تقوم مقام العشرات من الهيئات والمؤسسات التى قدر لها أن توظف طاقاتها وقدراتها فى خدمة المجتمع والعمل على الأخذ بيده نحو التقدم والازدهار والرخاء، وقيادته نحو الأفضل والأحسن. ومن هنا كان رأينا وجوب التزام الإذاعة (بوسيلتيها) بتقديم مادتها فى برامجها المنوعة باللغة التى تجمع القوم على لسان واحد، بوصفهم أمة واحدة يتمتعون بركائز القومية شكلاً ومضمونًا. هذه اللغة هى العربية الفصيحة الصحيحة فى صورتها السهلة التى من شأنها الوفاء بحاجات المتلقين كافة بلا عنت أو مشقة فى استيعاب المادة المذاعة. قد يحتج بعضهم بأن اللغة العربية بهذا الوصف ــ وبخاصة إذا كانت معربة ــ عصية التذوق على بعض الطبقات الاجتماعية، وربما ينصرف آخرون عن الاستماع إليها لعدم الفهم لها فى حياتهم العامة والخاصة.

نقول: هذا صحيح وواقع بالفعل. ولكن هذا النهج من هؤلاء وأولئك يشوبه العور والتهاون فى أهم خاصة من خواص العوربة، وهى تمكين اللسان العربى من موقعه وتأكيد الانتماء إلى قومية تمتاز من غيرها من القوميات التى شكّلتها ورسمت خطوطها وحدودها لغة موحَّدة موحِّدة. ومهما يكن من أمر. فإن الإذاعة بوسيلتيها، ما زالت فى رأى المخلصين أهم وسيلة فى تصحيح المسار اللغوى فى بلادنا العربية. ذلك أن هذا المسار مسار معوج محشو بالتعرجات والانحرافات يمنة ويسرة، يحتاج إلى يد صناع ترسم حدوده وتمهد خطوطه للوصول إلى الهدف المقصود والغرض المطلوب وهو وحدة اللسان العربى، أو- فى أقل تقدير- التقريب قدر الإمكان إن عاجلاً أو آجلاً بين تلك اللسن النافرة الناشزة التى تطير فى الهواء محملة بالتلوث اللغوى الفاقد الهوية المحروم من

ترشيحه المنبئ عن القومية العربيـة أو الأساس الأول لتشكيل هذه القومية وتمكينها من أرضها شكلاً ومضمونًا.

وليس من المبـالغة فى شىء أن نقـرر أن الإذاعة هى اليـد الصناع الأولى فى محاولة تصحيح المسار اللغوى فى بلادنا العربية. ذلك أن كلمتها المنطوقة هى أهم أنواع الكلمـات وأخطرها علـى الإطلاق. إنهـا تنمـاز من غيـرها بمجـمـوعـة من الخواص والمميزات التى تمثل البداية الحقيقية فى علاج المشكلة اللغوية التى نعيشها ويحار الناس فى إزاحتها.

من أهم هذه الخواص أنها كلمـة منطوقة مسموعـة تصل إلى الملايين كل حين، وأن لها تأثيرها العميق لما لها من علو القدر ورفيع المنزلة : ذلك لأنها تصدر عن جهاز يمثل الأمة فى مجموعها : جهاز لا يعبر عن رأى فرد أو طبقة أو فئة أو حزب.

إنها لسان الأمـة وترجمانها الصادق الأمـين، أو هذا هو المفروض. ومن هنا كان تصنيفنا لهـا أهم وسيلة وأكثرها فعّـالية فى اكتساب اللغـة وتجويدها ونشرها بين الناس وعـقد الألفـة بينهـا وبينهم. ومـعنى هذا أن الكلمـة المذاعة تتـربع على عرش وسائل التثـقيف اللغوى، وبخاصة فى بلادنا العربية، حـيث تنافرت ألسنتها فى الوقت الحاضر وأصابها التلوث اللغوى، من عربى كـسيح ولهجات متعددات متباعدات وحـشو ذلك كله فى أحيان كثيرة بخليط من اللغـات الأجنبية، المحروم من النطق السليم واستيعاب المعانى.

هذه العـشـوائية الـلغوية كـان لهـا أثرها الواضح فى تمكيـن العشـوائيـة فى السلوك والاتجاها ت العربية، ثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا كذلك.

فياليت رجال الإذاعة بكل طوائفهم ومـسئولياتهم يدركون هذا المأزق الذى تقع فيه لغتهم القـومية، فيعملوا بإخلاص على خدمتهـا ويأخذوا المبادرة فى ساحة التصـحيح اللغوى، باعـتماد اللغـة العربية الفـصيحة الصـحيحـة الوسيلة الأولى والأساسيـة فى الاتصال فى جميع البرامج بلا فـرق. ذلك، أن هذه اللغة هى اللغة

التى يشترك الجميع فى الانتساب إليها، وأنها قوام وحدتهم وعماد قوميتهم وتأكيد شخصيتهم وانتمائهم.

نحن لا ندرى موقف القياديين المخططين للعمل الإذاعى من هذه القضية. ولكنا ندرك ونعى تمامًا كل ما يصدر عن الفريق الآخر الفاعل المتعامل بالكلمة المذاعة وبثها إلى الجماهير، وهم المذيعون ومقدمو البرامج .... إلخ.

فما موقف هذا الفريق، وما كيفيات أدائه اللغوى فى جهازى الإذاعة؟ وهنا يجب التفريق بين الجهازين، - أعنى الراديو والتليفزيون- فيما يتعلق بالمستوى اللغوى المستخدم هنا وهناك فى وقتنا الحاضر، وفى كيفيات تفعيله فى البرامج المختلفة.

الملاحظ أن لغة الإذاعة بالراديو فى مسيرتها العامة أفضل بكثير مما يجرى فى التليفزيون، وأنه يمكن تصنيفها قدوة فى الإصلاح اللغوى فى المجتمع، فيما لو حاول المسئولون عنها هناك بذل مزيد من الاهتمام، وإدراك موقعهم القومى فى ساحة الجهود المخلصة لتمكين اللغة المشتركة (الفصيحة الصحيحة) بين القوم أجمعين، وتخليص مسارهم اللغوى مما يشوبه أحيانًا من العَوَر والقصور والخلط.

لا ننكر أن بالراديو برامج تُؤْثِرُ اللغة الفصيحة، كنشرة الأخبار والتعليق على الأنباء وبعض الحوارات الثقافية أو العلمية التى يُدعى إليها نفر من العلماء والمثقفين.

هذا شىء يذكر فيشكر، ولكن يبدو أن القوم هناك لم يستطيعوا أو لم يشاءوا السير على هذا النهج القويم فى كثير من البرامج، حيث تسمع هناك خليطًا من الكلام الفصيح وغير الفصيح، وهو الأمر الذى يحرم الإذاعة من تصنيفها قدوة فى التثقيف اللغوى والعمل على إصلاح الوضع المتردى فى المجتمع الذى يشكو من عشوائية السلوك اللغوى.

أما التليفزيون فى قنواته المحلية فأمره عجب ، حيث يحار المرء فى تصنيف أدائه اللغوي فى معظم برامجه : فصيحة كسيحة إن قُدر لها ذلك نادرًا، وركام من

كلام فاقد الهوية فى صورة عاميات نافرات، ورطانات ناشزات تزعج الآذان بالضجيج والثرثرة، وتحرم المتلقين من الفهم الصحيح، بما يكسو هذا الكلام من عشوائية فى الإلقاء الفاقد لخواص أنماطه من ألوان النبر والتنغيم وتلوين الصوت ارتفاعًا وانخفاضًا وغير ذلك، مما اتفق على تسميته أو حسبانه الصحة الخارجية للنص أو التركيب.

ويزيد الأمر سوءًا وتخليطًا فى الأداء ما يجرى فى التليفزيون أحيانًا فى البرامج الحوارية مع الضيوف، وبخاصة إذا تولت مذيعات إدارة هذه الحوارات.

ماذا يجرى هناك وماذا نسمع ونشاهد؟

إنها مجرد « دردشة » تبدأ بعقد عنوان محدد للحوار. هذا شىء جميل، شأنه أن يجذب المشاهد ويحفزه إلى التواصل مع المتحاورين. ولكن سرعان مايقع المتحاورون فى خلط لغوى وموضوعى، حيث تفقد اللغة هويتها، وينزاح الموضوع الأساسى للحوار، لتحل محله أفكار عشوائية لا رابط بينها، وليست ذات نسب مباشر أو غير مباشر بموضوع الحوار. وليس هذا فحسب، بل تتسم الجلسة أو الحوار نفسه برفع الصوت أو الصراخ وتداخل كلام المتحاورين بعضه مع بعض، بصورة تحرم المشاهدين من المتابعة واكتساب شىء ذى بال مما يقولون.

هذا الوضع فى الجهازين يحتاج إلى نظر بموقعهما ومسئولياتهما فى التثقيف اللغوى (وغيره)، بوصفهما الوسيلة الأولى الفاعلة فى خدمة اللغة القومية وإصلاح مسيرتها المحشوة بالمزالق والصعوبات .

يؤكد هذا الذى نقول ذلك المبدأ الذى وضعناه لتحقيق هذه الغاية ذات الأهمية القصوى فى مجتمع يعانى من فقدان القدوة الصحيحة لعلاج مشكلات اللغة فى عمومها ولغتنا العربية على وجه الخصوص.

هذا المبدأ هو « اسمع و أسْمِع ». ومعناه باختصارشديد : إذا أردت أن تكتسب لغة ما أو أن تجودّها أو أن تحظى بخواصها، فما عليك إلا أن تداوم

الاستماع إليهـا قدر الاستطاعة، فتستقر قـواعدها وظواهرها الأساسية فى الذهن، وتكمن هناك، حـتى تفعّلهـا بالأداء النطقى، فـتُسـمع نفسك ومن حـولك، ويأتى منطوقك مطابقًا فى المقام المعين وفقا لما سمعت وخزنت فى ذهنك. ومعنى هذا أن للغة جانبين، أحدهمـا موجود بالقوة potential وثانيهما مـوجود بالفعل actual. ويتمـثل الجانب الأول فى المقدرة اللغوية التـى منحها الله تعالى كل إنسـان سوى، وهى مقدرة وظيفتها تخزين ما يصل إليها من مادة لغوية منطوقة، مهما كان نوعها أو مستواها : عربية أو غير عربية، فصيحـته أو عامية ... إلخ، حيث تستقر حقائقها وظواهرها فى الذهن، ويصبح هذا المخـزون مصدراً جـاهزًا للتفعيل عند الحـاجة. ويتمثل الجانب الثانى فيما يُستمد من هذا المخزون نطقًا فى الموقف المناسب، حيث يأتى هذا المنطوق مطابقًا تمام المطابقة لهذا المخزون.

ومن الجدير بالذكر أن هذا التـفسير الحديث لجـانبى اللغة إن هو إلا توضيح بل تأكيد لما نفهمه نحن من آيتين كريمتين فى القرآن الكريم، اختلفت وجهات نظر الدارسين فى تفسيرهما.

الآية الأولى قـوله تعالى فى مـعرض ذكـر شىء من خواص آدم وامـتيـازه : «وعلم آدم الأسمـاء كلها » إلى آخر الآية. رأينا أن الأسـماء هنا ليس المقصـود بها الكلمات أو ذلك النوع المعين المقابل للأفعال والحروف (nouns)، وإنما المقصود بهـا منح آدم وذريتـه تلك الخـاصيـة، أى القـدرة اللغـوية التى تمثل الجـانب الأول للحقيقة اللغوية الذى يعنى المقدرة على تخزين المسموع، وإعداده للتفعيل بالجانب الثانى (النطق) المعبر عنه – فى رأينا – بالآية الثانية. وهى قوله تعالى :« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم ....» الآية.

هذا التفسـير للآيتين يُبعـد فكرة التعارض بينهمـا؛ إذ كيف يأتى الكلام فى الآية الأولى عن المقدرة اللغوية الواحدة ثم ينص على أن من نعم الله على بنى آدم اختلاف ألسنتهم؟

خلاصة الرأى عندنا أن الله سوّى بين البشر جميعًا بلا فرق فى منحهم المقدرة اللغوية التى تفعّل بألسنة مختلفة وفقًا لاختلاف المخزون فى هذه المقدرة، حسب ظروف كل بيئة أو جماعة فى تعاملهم اللغوى المختلف فى حياتهم العامة والخاصة.

وفى إيجاز موجز، نقول : النطق أولاً، وهو مختلف باختلاف الأفراد والبيئات، وتخزن حقائقه وظواهره فى الذهن، وتفعّل بعد نطقًا وفقًا لهذا المخزون.

ومن هنا كان النطق باللغة هو أساس التواصل اللغوى بين البشر، وعلى قده من مستوى أو نوع تكون اللغة المعينة .

هذه المسيرة للغة المنطوقة من الحتم أن يعيها الإذاعيون بكل طبقاتهم وفئاتهم. ونأمل أن يعملوا بحزم وصدق على تمكين أعلى مستوياتها فى البث الإذاعى وجعله النهج الأساسى فى عملية الإيصال والتوصيل، وفاء بموقع الإذاعة فى المجتمع، وخدمة للمتلقين وصيانة للغتهم من الذوبان فى ذلك البحر المضطرب المحشو باللهجات والرطانات التى من شأنها - إن عاجلاً أو آجلاً - أن تصبح لغات مستقلة، تهدد البناء القومى العربى، وتحيله إلى أبنية عشوائية فاقدة الهوية، نزاعة إلى التغريب الذى يصنع من العرب أقوامًا محرومين من نعمة الانتماء، ولا صلة بينهم إلا صلة الجوار فى المكان. أما الأمل الذى نهفو إلى تحقيقه فى البث الإذاعى فى عمومه فيتمثل فى توظيف المستوى اللغوى الذى يوحد ولا يفرق، وهو اللسان العربى الفصيح الصحيح.

وليس هذا التوظيف المنشود مستحيلاً أو عصى المنال، إنه ممكن وقابل للتحقيق فى كل البرامج، أو بعض معين منها، بوصفه بداية الطريق إلى الهدف المقصود، وهو تعميمه والأخذ به فى صور البث الإذاعى جملة وتفصيلاً، فيما لو صحّ العزم وصدقت النية بالتخطيط السليم وإعداد الآليات الكفيلة بتفعيله.

وما لنا نذهب بعيدًا وأمامنا الشواهد والأدلة الواقعية التى تبشر وتنبئ بوضوح عن إمكانية توظيف اللسان العربى الفصيح الصحيح فى سائر البرامج بلا فرق.

هناك فى إذاعة البرنامج العام وصوت العرب مثلاً فقرات منوعة (وإن كانت محدودة) تؤثر توظيف هذا اللسان. وهناك إذاعة القرآن الكريم التى تمثل القدوة والريادة فى توظيف اللسان العربى الموحَّد الموحِّد الذى يسير عليه رجال هذه الإذاعة التى تعد فى نظرنا خير وسيلة للتثقيف العام والخاص فى مجمل برامجها.

إن رجالها يوظفون لسانًا عربيًا يعز على بعض المتخصصين فى مواقعهم المختلفة ، وليس مستحيلاً أن ينهج الآخرون فى الإذاعات المصرية هذا النهج الطيب، ويمكن تحقيق ذلك لو أخذنا فى الحسبان بعض الضوابط عند اختيار الإذاعيين المسئولين عن الكلمة المنطوقة.

من هذه الضوابط وأهمها:

١- أن يكون المرشح للقيام بهذه المهمة حاصلاً على درجة جامعية فى تخصص اللغة العربية وثقافاتها، أو أن يكون محصوله اللغوى والثقافى وافيًا بالغرض المنشود.

٢- أن يخضع للاختبار الجاد قبل اعتماده، مبرّأ من المجاملة أو المحسوبية أو تبادل المنافع ...إلخ.

٣- يصنف المختارون تصنيفًا يعدل موقعهم المختار فى الشبكة الإذاعية أو البرنامج المعين.

٤- من الضرورى إخضاع المختارين للتدريب الإذاعى من وقت إلى آخر، لتجويد أدائهم، وتمكينهم من القيام بمسئولياتهم المكلفين بها على وجه مقبول.

وتجويد الأداء اللغوى يقتضى مراعاة جانبين من الصحة للكلام المنطوق : الجانب الأول يتحقق فى صحة بناء النص، من اختيار مكوناته ومواقعها وربطها بعضها ببعض فى البناء وصحة الإعراب، إن كان معربًا كما فى العربية. وهذا الجانب من الصحة هو ما نسميه نحن الصحة الداخلية.

ولكن مجرد صحة البناء - بوصفه بناء - لا تفى بأغراض أهدافه ومقاصده التواصلية التى تختلف من حال إلى حال، ما لم يكسوه طلاء يحدد مناسبته للمقام المعين وما يقتضيه من ألوان صوتية فى الأداء. هذا الطلاء هو ما ننعته نحن الصحة الخارجية للنص، وهو عنصر متمم للصحة الداخلية ومرشح للبناء كله للقبول.

تتمثل هذه الصحة الخارجية (أو الطلاء) فى مراعاة ربط الكلام بمقامه وما يقتضيه هذا المقام من ظواهر وسمات صوتية، تؤدى بصورها الصحيحة فى مواقعها المحددة، كالنبر ودرجاته والتنغيم وألوانه، والفصل والوصل ورفع الصوت وخفضه، ومراعاة ما يقتضيه الاستفهام والتعجب أو الاستخفاف أو التهويل أو التأكيد أو التكريم ...إلخ. من أداء صوتى مناسب، حسب المقام وما يحويه من أحداث وأشخاص.

ومعلوم لدى العارفين من الدارسين ألا قيمة للبناء محرومًا من طلاء يحدد قيمته وصلاحيته لأداء أغراضه وأهدافه.

٥- كل هذا يقتضى أن يتولى تدريب الإذاعيين رجال متخصصون فى العمل الإذاعى، لغة وخبرة كافية برسالة الإذاعة بوصفها مدرسة للجماهير العربية.

ومع ذلك، فقد لاحظنا فى الفترة الأخيرة (منذ عام تقريبًا) تهاونًا واضحًا من معهد التدريب الإذاعى والتليفزيونى فى القيام بمسئوليته الأساسية، وهى العمل على تجويد لغة الإذاعيين وهى العربية الفصيحة الصحيحة.

ظهر هذا التهاون وعدم الوفاء بالمسئولية فى أمرين : الأول ضم مادة التدريب فى اللغة العربية إلى مادة عامة، وهى ما سموها « مادة اللغات » فانصرف معظم الدارسين إلى اللغات الأخرى (الإنجليزية والفرنسية)، وتركوا اللغة العربية. الثانى: إسناد التدريب فى اللغة العربية فى موقعها الجديد غير المناسب لأهميتها ومكانتها فى العمل الإذاعى العربى إلى بعض من تنقصهم الخبرة والمعرفة

الكافية بالتدريب الإذاعى نظرًا وتطبيقًا، فانصرف الباقون عن الدراسة لعدم جدواها وتركوا المعهد نهائيًا.

وكانت النتيجة عقد دورات تدريبية من نوع ما فى مبنى الإذاعة والتليفزيون يتولاها بعض الإذاعيين الكبار أو القدامى، كل حسب معرفته وإمكاناته الخاصة، دون الاتفاق على خطة متكاملة، ومنهج موحد. وهكذا حرم العمل الإذاعى من أهم أركان نجاحه التى ترشحه للقدوة فى التثقيف اللغوى (وغيره) فى مجتمع هو فى أشد الحاجة إلى هذا التثقيف، وبخاصة من مصدر أو موقع مسئول، كالمعهد المذكور سابقًا أو الإذاعة بوسيلتيها الراديو والتليفزيون .

اكتساب اللغة وفن أداء الكلام

كثيرًا ما يتكلم الإنسان، وكثيرًا ما يفشل بعضهم فى توصيل أفكارهم أو بيان مرادهم مما يقولون. ومعلوم أن الناس درجات فى هذا التوصيل، وفقًا لما يملك كل منهم من تلك العوامل التى تحدد أو تصنف كلامهم من حيث القبول أو التأثير فى السامعين والمتلقين، أو الحرمان من ذلك كله أو بعضه. ذلك أن الكلام ليس مجرد أصوات تلقى فى الهواء فى صورة عشوائية، لا نظام لها ولا ارتباط بين وحداتها المشكّلة للبناء. الكلام أصوات منسوقة نسقًا معينًا ينبئ عن اللغة المعينة التى يستخدمها المتكلم، وتفصح عن معانٍ ودلالات يدركها المتلقى أو فى استطاعته إدراكها بصورة أو بأخرى.

فن الكلام يحتاج إلى نطق الكلمات بدقة، مع ما يكسوها من ظواهر صوتية ضرورية فى توضيح المعانى من تنغيم وانسجام صوتى، كما يتضمن تثقيف الذهن وإثارة الخيال، بحيث يصل بذلك إلى خلق اهتمام حقيقى باللغة الجيدة، وإلى خلق قدرة على تذوق تلك اللغة. تحقيق هذين الجانبين فى الكلام خير دليل على أهمية هذا الكلام وعلى تصنيف المتكلم وموقعه فى درجات الأداء. وقديمًا قالوا: « لا تُثْنِ على الرجل قبل أن تسمعه يتكلم، فإن الكلام هو امتحان الرجال ». ويؤكد هذا الذى نقول، تلك المقولة الأخرى التى تزن الإنسان وتعيِّن شخصيته بلسانه: لسانك أنت your tongue is you».

وقديمًا قالوا :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وقال آخر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

وتفسيرنا لهذين البيتين هو أن " لسان الفتى هو كل الفتى "، لأن اللسان لا ينزع مادته من فراغ، وإنما يستمدها من العقل (المعبَّر عنه بالفؤاد فى البيتين) ويصوِّرها بحركاته، ويجسمها حقيقة واقعة، بعد أن كانت خافية علينا، لا ندرى كنهها أو حقيقتها.

ومهما يكن الأمر، فإن الكلام الجيد يحتاج إلى خبرة ودربة فى التأليف والأداء معًا، واكتساب هذه الخبرة وتلك الدربة إنما يتحقق بالتعلم، وهذا التعلم أساسه القدوة، وعلى قدر هذه القدوة من الجودة أو الخلط يأتى الناتج على منواله ومثاله.

ومن هنا ركّز الدارسون على أهمية هذه القدوة من البداية حتى النهاية. ولكن أين هذه القدوة التى ننشدها وتصل بنا إلى الهدف المبتغى فى فن الكلام؟ سؤال مهم والإجابة عنه أهم. القدوة الصالحة تختلف من مجتمع إلى مجتمع، حسب الظروف والأجواء الثقافية والاجتماعية.

هناك فى بعض المجتمعات وجود ثابت مستقر للقدوة اللغوية الصالحة، حيث تكون الفرصة مواتية لتجويد الكلام والإتيان به على وجه مقبول، لتمكين ما يعرف باللغة القومية. وهناك على العكس من ذلك مجتمعات أخرى لا تدرك موقعها فى العالم، ولا تعى فى قليل أو كثير أهمية هذه اللغة التى من شأنها أن تجمع الشتات من الطوائف الاجتماعية على لسان واحد. هذه المجتمعات التى تعيش فى عشوائية لغوية كثيرة كثرة بارزة.

من هذه المجتمعات المجتمع العربى من أقصاه إلى أدناه بلا فرق. هناك عبث لغوى ناتج عن ثقافات متباينة وأفكار ينقصها التكامل أو التقارب. وهنا يحار المرء فى اختيار القدوة أو تحديد طوائفها. ربما تكون موجودة، أو ينبغى أن تكون موجودة هنا أو هناك فى مواقع الحياة المختلفة.

ينبغى أن يعلم الناس، والمسئولون منهم عن التثقيف اللغوى بوجه خاص، أن اللغة مكتسبة. يكتسبها الإنسان عن طريق تفعيل طاقاته اللغوية الطبيعية الممنوحة من الله سبحانه وتعالى. واكتسابها إنما يتحقق بالتعلم بالطريق المباشر أو غير المباشر.

نعنى بالتعلم بالطريق المباشر ذلك الذى يجرى فى دور العلم من مدارس ومعاهد وجامعات، وفقًا لخطط مدروسة ومناهج مرسومة، وفاءً بحاجة المتعلمين من الثروة اللغوية التى اتفق عليها قوميًا والتى من شأنها ـ وهو المفروض بل الواجب ـ أن تجمع أهل المجتمع المعين على لسان واحد. هذا اللسان الموحَّد فى حالتنا نحن العرب هو العربية الفصيحة الصحيحة . ولنا عن التعلم بالطريق المباشر كلام طويل يقع فى مكانه فيما بعد.

أما التعلم أو اكتساب اللغة بالطريق غير المباشر فقوامه القدوة . هذه القدوة قد تكون مختلفة الأنماط، متباينة الأداء، وقد تكون واعية بموقعها أو غافلة عن هذا الموقع.

أولى مراتب هذه القدوة وأهمها على الإطلاق فى التثقيف اللغوى، يتمثل فى الأم. ذلك أن الأم (أو من يقوم مقامها من النساء) هى أول من يصل صوته إلى سمع الصغير؛ مدركًا لهذا الصوت أو غير مدرك. يتحقق هذا الصوت فى صورة مداعبة أو محاورة (من جانب واحد) أو غناء أو تسلية له أو لنفسها.

ولكنا ـ مع الأسف الشديد ـ نقرر أن الأم العربية الآن ليست مؤهلة للتثقيف اللغوى المنشود، أو المفروض أن تكون قدوة صالحة فى تحقيقه. ذلك أن الأغلبية العظمى من الأمهات العربيات (وغير الأمهات) لا يستطعن الإتيان بجملة واحدة عربية فصيحة صحيحة، بل لا يخطر على بالهن الانشغال بما ينبغى تقديمه لصغارهن من المستويات اللغوية. لسانهن مشغول بأخلاط من الكلام فى صورة عربية كسيحة ولهجات متنافرات ورطانات غير مؤتلفات شكلاً ومضمونًا. فلا هن

يدركن موقعهن أو مسئولياتهن فى تثقيف الصغير، ولا هذا الصغير المسكين نال قدرًا من التثقيف اللغوى، يمكن اعتماده الخطوة الأولى والأساسية فى اكتساب اللغة القومية المتفق على نعتها بالعربية الفصيحة الصحيحة.

والباقيات من الأمهات (وهن قليلات) لهن نوع معرفة نظرية باللغة العربية، ولكنهن يفتقدن الشعور بأهميتها، فلا يرغبن فى استخدامها، بل ربما يأنفن من هذا الاستخدام خشية أن يصنفن تصنيفًا يحشرهن فى تلك الطبقة من النساء المتخلفات غير المتحضرات.

ومن ثم يلجأن إلى أسلوب مخلوط مغلوط شكلاً ومضمونًا فى التواصل اللغوى. لسان معوج مشحون بأصوات نافرات غير مؤتلفات، لا تنتمى إلى مستوى لغوى معين. ألفاظ عربية مغلوطة نطقًا وأداءً، تغشيها ألفاظ وعبارات فاقدة الهوية من لهجات ورطانات غير مؤتلفات تزاحمها كلمات أو عبارات من لغات أجنبية، نزوعًا إلى إظهار الفوقية الثقافية والاجتماعية.

النتيجة الحتمية لهذا السلوك اللغوى نتيجة غير مقبولة، ولا يمكن ترشيحها قدوة لتثقيف الصغار لغويا بحال من الأحوال. إنه سلوك لغوى مهجّن فاقد الانتماء، يؤدى حتمًا إلى بلبلة ألسنة الصغار وتهجين أفكارهم واتجاهاتهم وأنماط سلوكهم فى المجتمع. وهذا بالفعل ما نراه ونحس به فى كثير من المواقع الجامعة للصغار والشباب على حد سواء.نراه فى الشارع وفى المدرسة والجامعة والنادى، بل قد ينزع سلوك بعض هؤلاء جميعًا إلى " البلطجة " أو الخروج عن التقاليد والأعراف التى من شأنها أن تصنع منهم رجالاً ونساء صالحين مؤهلين لقدوة الأجيال المتلاحقة.

وهكذا نرى أن الأم العربية فى وقتنا الحاضر فقدت موقعها بوصفها القدوة الأساسية والأولى فى تثقيف الصغار والناشئة تثقيفا لغويًا عربيًا مقبولاً. ويزيد الطين بلة والأمر سوءًا وضياعًا ما تقوم به بعض السيدات المدعيات فوقية ووجاهة

اجتماعيـة من تكليف المربيات أو العاملات غير العربيات بتربيـة الصغار، واحتلال موقع الأم احتـلالاً كاملاً فى كل مايفى بحاجـة الصغير من رعاية مـادية وسلوكية وثقافية. وهنا مكمن الخطأ والخطر، حيث إن الصغير المسكين فى هذه الحالة سوف يتلقى أشـتاتا من الثـقافات والعـادات المتبـاينة التى تفقـده وتحرمـه من التكامل فى أساسيات تشكيل الهوية والانتماء الحقيقى لقومه.

وهكذا يخـرج الصغيـر من بيتـه إلى المجتـمع خالى الوفاض ملـوّث اللسان بأصـوات لغوية مـخلوطة الهـوية، الأمـر الذى من شأنه أن ينـعكس على فكر هذا الصغير، فيـصيبه بالاهتزاز وعدم الاستقرار فى مـسيرة حياته الاجتماعيـة والثقافية التى هى أساس تشكيل القومية أو تمكينها فى صورتها الصحيحة.

ويأتى الشارع خطوة تالية فى مسـيرة القدوة فى التثقيف اللغوى غـير المباشر وهنا نتساءل : ما حظ هذا الصغير المسكين من التثقيف اللغوى فى الشارع المصرى أو العربى؟

حظ سيئ وضـياع تام، حيث يُقذف بالصـغير إلى بحر متـلاطم الأمواج من المستـويات اللغوية. لا تعرف لهـذه الأمواج بداية أو نهـاية، ولا يمكن لأى حاذق ماهر أن يمـيز موجـة من أخرى أو أن يدرك الحـدود الفاصلة بينهـا، هذه هى حال المستويات اللغوية فى الشارع العربى الـذى لا تستطيع تحديد هوية رواده بالاعتماد على مقذوفات ألسنتهم.

نسـمع أصواتًا لا إلف بينهـا، فاقـدة التناسق ووحـدة النظام أو تكامله. ذلك أن صاحبها لملمها من بيئات لغوية ذات ثقافـات ورؤى مختلفة، ترجمتها الألسنة بحالها، فكانت هذه العشوائية الكلاميـة فى الشارع العربى. عربية كسيحة ولهـجات مختلفات ورطانات متباينات، وألفاظ وعبارات أجنبية مخلوطة مغلوطة المعنى والأداء.

هذه العشوائية الكلامية ليست مقصورة على الشارع، بل لها وجود ملحوظ فى كثـير من الهـيئـات والمؤسسـات التى يعمل بهـا أو يرودها فئـات مختلـفة من

الجماهير. وهنا يختلف الكلام باختلاف هذه الفئات : ألسنة ملوثة تلوث الحياة الاجتماعية والثقافية التى تسود المجتمع العربى، وتحرمه من تكامل الفكر وتمكين اللغة القومية من مواقعها فى بلادها.

كل هذا الذى نقول يمتد أثره إلى كثير من المؤتمرات والندوات وما إليها، بقطع النظر عن خصوصية الموضوعات والمشكلات التى تطرح للنظر والمناقشة هنا وهناك، وبقطع النظر أيضًا عن المشتركين فى هذه المناسبات.

وأخشى أن أقرر هنا أن هذا الخلط والتخبط فى السلوك اللغوى له حضور واضح فى أهم وسيلة من وسائل التشقيف اللغوى غير المباشر، وأعنى بذلك الإذاعة، بوسيلتيها (المسموعة والمرئية) الراديو والتليفزيون.

أما التليفزيون فأمره معروف يدركه العامة والخاصة. فى البدء نقرر أن المسئولين عن هذا الجهاز الخطير الآن لا تعنيهم المسألة اللغوية بحال من الأحوال. إنما تعنيهم المشاهد البراقة المرسومة بصور سطحية والمحشوة بأخلاط من الأحداث التى لا تفيد فى قليل أو كثير. أما وسيلة الاتصال - وهى اللغة - فى هذا الجهاز فمن الصعب تحديد هويتها أو إدراك مستواها : أصوات زاعقة متداخلة تغشى معانيها ودلالاتها، بحيث تضطر إلى إغلاق هذا الجهاز وتريح نفسك من هذا العبث اللغوى الذى تصنعه - فى أغلب الحالات - مذيعات محرومات من الثقافة اللغوية، غير عارفات بأصول نظم الكلام وأدائه.

يحدث هذا الخلط والتخبط فى معظم البرامج، وإن كنا نأنس أحيانًا، أو قل نادرًا، إلى بعض ما نسمعه أو نشاهده كما فى نشرات الأخبار ونحوها، وإن كان هذا القليل النادر يؤدى بلغة عربية لا نرشحها مثلاً صالحًا للتثقيف اللغوى المنشود الواجب تمكينه فى هذا الجهاز الخطير الذى يعد من أهم وسائل خدمة اللغة القومية والعمل على نشرها بين العامة والخاصة.

وخلاصة القول فى ذلك أن التليفزيون المصرى بوضعه الحاضر لا يصلح قدوة أو موقعًا يمكن الاعتماد عليه فى التثقيف اللغوى.

وندلف بعد إلى الإذاعة بالراديو. لا ننكر أن الإذاعة أحسن حالاً وأفضل بكثير من التليفزيون فى الأداء اللغوى. ذلك أن مذيعيها فى جملتهم يختارون بمعايير مناسبة لمواقعهم القومية المهمة، وفى مقدمتها معيار جودة اللغة القومية قدر الإمكان.

هذا صحيح، وهو منهج فى الاختيار استقر عليه التقليد الإذاعى لمدة طويلة، أيام كان يتولى هذه المسئولية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، من حيث اهتمامهم بتمكين الإذاعة المصرية من موقع رائد معلم مثقف فى المنطقة العربية، حتى صُنفت هذه الإذاعة المثل الأعلى فى أداء رسالتها والوفاء بمسئوليتها بلغة عربية على قدر كبير من الصحة والقبول من بلاد العرب كافة، بل ومن المتخصصين العارفين فى جملتهم.

ولكنا مع ذلك، لاحظنا ونلاحظ فى السنوات الأخيرة أن هذا النهج التقليدى المقبول بنسبة عالية قد اهتزت خطوطه وتناثرت خيوطه، واعوج أسلوب التوصيل اللغوى، وتداخلت اللسن واختلط بعضها ببعض فى كثير من البرامج.

ولهذا الاعوجاج أسباب كثيرة من أهمها ضعف لغوى عام يسود الجو الإذاعى كله، شأنه فى ذلك شأن المجتمع العربى بأسره. ذلك أن العرب فى هذا الزمن غير الجميل قد نسوا أو تناسوا موقعهم فى صفوف الأمم، وخرجوا منها شراذم متفرقات، " يبلبلون " بألسنة ملوثة تشى بضعف الانتماء ووهن اللسان الموحَّد الموحِّد المتمثل فى العربية الصحيحة الفصيحة.

ويبدو لنا - والواقع يؤيده - أن من عوامل الضعف فى الأداء اللغوى فى الإذاعة، التجاوز أو التهاون فى اختيار العاملين بها، لأسباب غير موضوعية لاتليق بهذا الموقع ذى الأهمية البالغة فى التثقيف اللغوى وغيره.

وعلى الرغم من هذا كله، مازال الأمل معقوداً على الإذاعة بالراديو فى تصحيح المسار اللغوى فى جملة برامجها الكثيرة المنوعة. ودليل ذلك ما يجرى عليه العمل بالفعل من محاولات صادقة مسئولة فى بعض البرامج والفترات المختلفة، كما فى الأخبار واللقاءات الثقافية والأحاديث الأدبية والعلمية، وما إلى ذلك، الأمر الذى يشجعنا على تصنيف الإذاعة بالراديو موقعًا قوميًا يمكن اعتماده قدوة فى التثقيف اللغوى بصورة مقبولة إلى درجة ترشحها للارتقاء بهذه القدوة، بحيث تصبح من أهم وسائل نصرة اللسان القومى، بتمكينه من موقعه الطبيعى ورعايته ونشره بين الناس أجمعين.

وللإذاعة مسالك كثيرة يمكن تطويعها والحرص على تفعيلها أداةً مؤكدة فى تصحيح الجو اللغوى وتنقيته من شوائبه وتجويده دون عناء أو افتعال. وأعنى بذلك وجوب الاهتمام والتوجه الصادق نحو الأغنية وما شابهها من أعمال لها جاذبيتها وقوة تأثيرها على السامعين، والمسلسلات والمسرحيات، وما إلى ذلك.

أما الأغنية فهى سيدة وسائل الجذب والتأثير فى السامعين كافة بلا فرق. ذلك أنها بخواصها البنائية والأدائية، وما يكسوها ويزينها من محاورات الأداء والموسيقى، لها خطرها وأهميتها فى تحريك النفوس وإيقاظ الشعور ومخاطبة الأحاسيس.

ذلك أن الأغنية (بمعناها الفنى) لها مذاقها وخواصها التى تخاطب العقول والعواطف ، بلغة منسوقة البناء المتآلف الوحدات، المكسوة بنغمات الأداء. كل هذه الصفات والسمات للأغنية من شأنها أن تجلب الراحة والمتعة، وتهيئ السامع لالتقاط ما يحلو له من ألفاظ ومعان تحاور أفكاره وذكرياته وخبراته. يستقر كل ذلك في ذهنه ويفوز بنمط من الكلام المقبول من العامة والخاصة.

وهنا يأتى دور الإذاعة فى استغلال هذه الفرصة، فيحاول المسئولون هناك اختيار ما يلائم موقعهم فى المجتمع، وبخاصة فيما يتعلق باللغة ومستواها.

معلوم أن الأغانى فى مصر الآن قد تعددت أنماطها وتشتتت اتجاهاتها وأفكارها، فليكن هذا وذاك. ولكن الإذاعة بوصفها جهازًا ذا خطورة وأهمية فى التثقيف، عليها - تقديرًا لموقعها هذا الرائد - أن تختار من هذا الحشد المتراكم من الأغانى ما يصنفه المثقفون وأولو الرأى الراشد أغانى تريح ولا تزعج، تجذب ولا تنفر، مصوغة بلغة مقبولة نظمًا وأداءً.

وعندنا أن العربية الفصيحة الصحيحة هى سيدة المستويات اللغوية التى ينبغى على المسئولين هناك حسبانها المعيار الصحيح للاختيار وتمكينها فى البث الإذاعى. وهذا النهج فى الاختيار ليس صعبًا ولا مستحيلاً. ودليل ذلك أن ما يجرى فى الإذاعة الآن يبشر بالخير ويطمئن النفوس من هذه الزاوية. فهناك برامج متعددة ومنوعة تسير على هذا الخط المقترح، وهو اختيار العربية الفصيحة الصحيحة فى تقديم مادتها، كالأخبار واللقاءات العلمية والفنية والثقافية.

وهناك أيضًا - وهذا شىء يذكر فيشكر - إذاعة القرآن الكريم بارك الله فيها وفى رجالها. إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فى أداء رسالتهم، وتمكينها من موقعها هذا الرائد الفذ فى خدمة العربية ودينها الحنيف.

ولا تعجب إن قلت : إن هؤلاء الرجال من مذيعين ومسئولين بهذه الإذاعة يمثلون الصفوة فى الأمة العربية جميعًا فى أدائهم اللغوى وفى برامجهم ذات الألوان المتعددة التى تثقف، بل تخطف أسماع الجماهير وأذهانهم لتلقى هذا الفيض الزاخر من مواد تستجيب لها نفوس السامعين من العامة والخاصة.

وللإذاعة أن تجوّد مسيرتها اللغوية بتوجهها نحو نشاطات إذاعية أخرى ذات أهمية فى هذا السياق، وأعنى بذلك المسلسلات والمسرحيات وما شابه ذلك، حيث إن لكلٍّ موقعًا مهمًا فى الاتصال بالجماهير.

كل هذه الوسائل المهمة فى التوصيل اللغوى الجيد يمكن استغلالها وتمكينها من مواقعها للصالح العام والخاص. إنها بجودتها اللغوية تؤثر فى

المجتمع العـام، وتشده – إن عاجلاً أو آجلاً – إلى مـا يتلقاه من مواد مبـثوثة بلغة عربية، تحفزهم على تقليدها أو الائتـناس بها إلى أن يشاء الله حتى تصبح الإذاعة أهم وسائل التثقـيف اللغوى غير المباشر. وهذا النهج نفسه يمـتد أثره إلى الخاصة العارفين أو المهـتمين باللغة القـومية، حيث يؤكد اهتـمامهم بالقضـية اللغوية، بل ربما يعـمق معرفـتهم بهـا، ويرشدهم إلى كـيفـيات استخدام لـغتهم علـى الوجه الصحيح الموثوق به.

بقى أن نشير – بصدق وإخلاص – إلى أن إذاعـتنا فى الوقت الحاضر تحاول جاهدة أن تجوّد مسـيرتها فى التخطيط والإنجاز. ويمكن لهـا أن تعمق هذه الجودة، وتعلو بها إلى درجة الامتياز، لو أخذ مسئولوها بالنصائح التالية :

١– الحـزم والحسم فى اخـتيـار المذيعين، وفـقًا للمـعـايير الثـقافـية واللغـوية التى ترشحهم لهذه المواقع القومية ذات الأهمية القصوى للكافة.

٢–توزيع المختارين من المذيعين على البرامج المختلفة وفقا لإمكاناتهم.

٣– إخضاع هؤلاء المذيعين للتدريب الجاد من وقت إلى آخر.

٤– العدالة فى هذا التوزيع ماديًا وأدبيًا.

ومـهمـا يكن الأمر ، فـإننا ندرك أنه من الصـعب على الإذاعة أن تلتـزم فى إرسالها بالعربية الفصيحة الصـحيحة فى كل برامجها. هذا صحيح ، والرأى عندنا أنه لاضيـر أحيانًا من الانتـحاء نحو نمط من الـعاميات مـقبول من الـكافة فى بنائه اللغوى ودلالاته فـى تلك البرامج الموجهـة حصـريًا إلى أولئك المواطنين الذين لم ينالوا حظًا كـافيًـا من التعليم والـثقافـة اللغـوية، على أن يشكل هذا الخط المقـترح جسرًا للوصول بهم إلى نمط مقبول من العربية الفصيحة.

وهؤلاء هم أولئك الذين يشكلون القوة الفاعلة فى المصانع والمتاجر والحرف والحـقـول، ومـا إلى ذلك من كل نشـاط عـام درج الـعـاملون به على استـخـدام

العامـيات. وليس يعنى هذا النهج فى البث الإذاعى التـقليل من شأن هؤلاء، بل - على العكس - هو سلوك يفى بحاجتهم ويشبع رغباتهم طبقًا لمواقعهم.

ومع ذلك يمكن أن تقدم لـهم مداخلات من وقت إلى آخـر بأسلوب عربى صحيح فصيح. وأقرب هذه المداخلات وأفضلها تأثيرًا وأيسرها تثقيفًا لغويًا يتمثل فى تقديم الأغـانى سهلة النظم منسـوقة البناء العربى الـفصيح، التى تتـجاوب مع أفكارهم وتحكى صـورًا من حيـاتهم وتتـحاور مع شـعورهم وعـواطفهم وأجـواء بيئـتهم وبيئـات غيرهم من العـامة والخاصـة على سواء. وليس هذا النهج المقـترح مسـتحيلاً أو صـعبًا، إذ لا تخلو مكتـبة الإذاعة من هذا القـبيل من الأغانى قـديمها وحديثها، وأظننا جميعًـا ندرك هذا الواقع، ويتوقف الأمر على صدق النية وحسن الاختيار.

يمكن للمسـئولين هناك العود إلى تلك الأغـانى الرائعة الشائعـة لغة وأداءً، كـما فى أغـانى الرواد من المؤلفـين والمطربين التى نهـفـو جميـعًا إلى سـمـاعهـا والاستمتـاع بحلاوتها وجمال نغمـاتها وموسيقاها، متـمثلاً ذلك كله فى روائع أم كلثوم وأسمهان وعبد الوهاب ومن سار على دربهم من القدامى والمحدثين.

وفى هذا السبيل، يمكن أن نترخص قليـلاً فى هذا النهج، وننحو أحيانا إلى تلك الأغانى المشـهود لها بالقـبول والارتياح من الكافة، عـلى الرغم من صياغتـها بأسلوب لغوى خـاص، يخرجهـا بصورة أو بأخرى مـن حظيرة العربى الفـصيح، لخلوها من ظاهرة الإعـراب ووجـوهه التقليـدية، واحـتوائهـا على بعض الألفـاظ والمفردات العامية النظيفة بناءً ودلالة.

يظهر ذلـك بوضوح فى كثـير من الأغـانى المنعوتة بالأغـانى الشعبـية، كـما نلمسـه وندركه فى أعـمال الكثـيرين، وعلى القـمة من كل ذلك ما أتحـفنا به ذلك الرجل ذو الثقـافة الاجتمـاعية والوطنية العـالية، بيرم التونسى. وهذا مـثال ألقى به إلينا " بيرم التونسى " وشدت به " الست " :

شمس الأصيل دَهّبتْ ... خُوص النخيل يا نيل
تحفة ومتصوَّرة ... فى صفحتك يا جميل
والناى على الشطّ غنّى ... والأدود (القدود) بتميل
على هبوب الهوا ... لما يمرّ عليل

وهذا مثال آخر صنعه شوقى لعبد الوهاب. ينسج شوقى ويبدع عبد الوهاب ويغنى :

فى الليل لما خلى ... إلا من الباكى
والنّوح على الدُّوح حِلِى ... للصامت الشاكى
ما يَعرفْ المبتلى ... فى الروض من الحاكى

وهكذا تبين لنا من كل ماسبق أن وسائل التثقيف اللغوى بالطريق غير المباشر لم تفِ بآمالنا فى اكتساب اللغة القومية، أساس التكامل الفكرى وعماد التوجهات الثقافية والسلوكية فى المجتمع.

وإلى هنا نتساءل : ما حال وسائل التثقيف اللغوى المباشر المتمثل فى دور التعليم بدءاً من الحضانة حتى التعليم العالى من جامعات ومعاهد عالية ومراكز بحوث ... إلخ ؟

الإجابة عن هذا التساؤل مزعجة تثير القلق وتدعو إلى النظر بحيدة وإخلاص. ذلك أن واقع التعليم فى مصر الآن يمكن تصنيفه بالتعليم المهجَّن الذى يفقد أهم مقومات القومية وعناصرها الأساسية التى تمكنها من تحقيق خواصها وتعين موقعها المفروض أن تحظى به خالصًا غير مشوب بما يخرجه عن أصالته.

فى البدء ننظر فيما يجرى فى دور الحضانة، بوصفها الخطوة التالية لدوْر الأم فى التثقيف اللغوى للناشئة. إنها خطوة أسوأ من سابقتها فى هذا الشأن، وهو أمر

معـروف مشـهور. يتـولى تربيـة هؤلاء الصغـار ثلة من المدرسين ومـعاونيـهم من «الدادات " الذين هم جميعًا محـرومون من معرفـة العربية الفصـيحة الصحـيحة، معرفة تؤهلهم قدوة لهـذا الدور الخطير فى هذه المرحلة المهمة. أضف إلى ذلك أن العارفـين منهم (إن وجدوا) درجـوا (بالعادة والتـقاليـد) على استخـدام خليط من الكلام غير محدود الهوية.

إن تواصلهم باللغة مع هؤلاء الصـغار من الصعب تحديد هويتـه أو تصنيفه. هذا التواصل فى جـملته يتم بلهجـات ورطانات ناشزات مختلفـات نطقًا ودلالة. وإذا بدت من هؤلاء المدرسين بادرة طيبة باستعمال جمل أو عبارات عربية جاءت ممسوخة مشوهة البناء والطلاء، بحيث لا يمكن حسبانها قدوة فى التثقيف اللغوى لهؤلاء الصغار الذين نعدهم البذرة الطيبة الصالحة لصنع رجال المستقبل.

فإذا مـا انتقلنا إلى التعليم العـام فى المراحل الابتدائية والإعـدادية والثانوية، ضربنا كفًا على كفٍّ حسرةً وألمًا مما يجرى فى فصول الدراسة هناك. ذلك أن اللغة العـربية فى هذه المراحل لم تـلق الاهتمـام الكافى، لا من حـيث المنهج والتوقـيت والأداء. المنهج قـد يكون مرسومًـا ومخططًا فى الأوراق الرسـمية، لكن غالبًـا ما يلتبس الأمـر على المعلمين فـيتجـاوزونه أحيانًا بالنـقص أو الزيادة أو الخروج عن شىء من مواده المقررة. والملاحظ أيضًـا أن أوقات تقديم دروس اللغة العربيـة غير كافـية، وكثـيرًا ماتقع فى أوقـات لا تعدل أهميـة المادة، حيث تأتى فى آخر الفـترة الدراسـية أو مـحشـورة حشـرًا فى جـدول الدراسة بحـيث يطغى عليـها السـابق واللاحق من المواد.

أما فيما يتعلق بالإمكانات العلمية والتربوية للمعلمين وسلوكهم فى تقديم المادة وأدائها، فهى أمور تحتاج إلى نظر، لما يلفّها من تجاوزات، وما يشوبها من قصور.

ففى المرحلتين الابتدائيـة والإعدادية قد يكون المعلم متخصصًـا، ولكنه كثيرًا ما يـتجاهل أو يـتناسى مسـئوليـته، فـيقدم مـواد العربيـة بلغـة غير مـقبـولة شكلاً

ومضمونًا. وكثيرًا ما يلجأ بعضهم - قصدًا أو عن غير قصد - إلى العامية. والنتيجة خروج التلاميذ من فصولهم كما دخلوا محرومين من التثقيف اللغوى المناسب.

أما فى المرحلة الثانوية فلم نعدم وجود من يحاول الوفاء بمسئوليته، فيستخدم العربية الفصيحة الصحيحة أحيانًا بحكم خبرته السابقة، ولكنه لم يلبث هو الآخر أن يقع فى محظور الخلط بين العربية واللهجات.

هذا سلوك معروف مشهور فى هذه المراحل الثلاث، الأمر الذى يعنى أن اللغة العربية فى هذه المراحل الثلاث لم تحظ بحقها من الاهتمام والتمكين لموقعها فى تلك المراحل التى من شأنها تربية الشباب وتأهيلهم للقيام بدور القدوة فى اكتساب الثقافة والمعرفة العربية التى تؤكد الانتماء، وتحقق الهوية التى تميزهم من غيرهم وتحدد موقعهم فى صفوف العالم.

وليس هذا فقط، فإن هناك أوجهًا أخرى من القصور والتجاوز فى تقديم مادة اللغة وأدائها. ذلك أن بعض المعلمين فى هذه المراحل الثلاث ينحون فى تقديم المادة اللغوية نحواً يخالف طبيعتها فيركزون عملهم وجهودهم على مستوى معين من مستوياتها، دون التفات إلى أن اللغة (أية لغة) بناء متكامل ينبغى النظر فيه وفى خواصه، بعضها مع بعض دون تفريق. وهذا النهج فى التقديم لازم وحتمى وبخاصة فى تلك المراحل الدراسية العامة غير المتخصصة.

من ذلك مثلاً، أن بعضهم (بل أغلبيتهم) يصرفون كل أوقاتهم فى مناقشة قواعد اللغة وأوجه الإعراب وما إلى ذلك، دون التفات مناسب إلى وحدات البناء ونوعيتها ونظام تأليفها وترتيبها والعلاقات بينها من حيث النوع والعدد والتعريف والتنكير ...إلخ. والأعجب من هذا أن الأمثلة التى تقدم لاستخلاص قواعد اللغة وبيان أوجه الإعراب، أمثلة جامدة عشوائية يقذف بها لسان المعلم، خالية من السياق الذى يمنحها قيمها التعبيرية والدلالية.

والرأى عندنا أن تقديم مادة اللغة العربية فى هذه المراحل العامة ينبغى أن يتم من خلال النصوص. يختار المعلم النصوص الأدبية المناسبة لكل مرحلة من المراحل الثلاث، ويقدمها مكتوبة إلى الدارسين ليكتمل الجو اللائق بين المعلم وتلاميذه.

يبدأ المعلم بقراءة النص قراءة متأنية سليمة الأداء المناسب لبنائه ومكوناته ودلالاته. ونعنى بذلك مراعاة الطلاء النطقى المتمثل فى الوقفات والاتصالات والارتفاعات والانخفاضات ونغمات الاستفهام والتقرير والمدح والذم....إلخ. هذا الطلاء بألوانه المختلفة عامل مهم فى توضيح المعانى وتمكين النص من مطابقته لطبيعة السياق الداخلى والخارجى معًا.

إذا استقر للمعلم ذلك واطمأن إلى تحقيقه، يأخذ فى الشرح والتحليل لموضوع النص وأفكاره العامة على وجه يمكّن التلميذ العادى من استيعاب مضمون النص ومراميه وأغراضه.

ثم تأتى المرحلة التالية ذات الأهمية القصوى فى سياق تعليم اللغة واستخلاص قواعدها على المستويات كافة.

تتمثل هذه المرحلة أو الخطوة المهمة فى أن يعمد المعلم إلى إقراء تلاميذه واحدًا واحدًا النص المختار أو قدرًا كافيًا منه. وهنا تكون الفرصة مواتية للحوار الجاد بين المعلم والمتعلمين. الأول يسمع ويلاحظ سلوك الآخرين فى أدائهم للنص: يلاحظ الأخطاء والتجاوزات التى تقع منهم عند الأداء على المستويات اللغوية كافة، ويعمد إلى التصحيح ولفت أنظار الجميع إلى ما تقذف به ألسنتهم من هذه الأخطاء والتجاوزات، مبينًا وجه الصحة فى كل ما يسمع.

وهنا تأتى تنبيهات المعلم وإرشاداته حية واقعية، وتنفذ إلى أذهان المتعلمين بسهولة ويسر، خالية من الجمود أو الافتعال، قابلة للاستيعاب وزيادة المعرفة اللغوية أو تأكيدها.

وبعد انتهاء مرحلة الإقراء، تأتى مرحلة التلخيص و الاستنتاج من المعلم، لكل ما يود من قواعد اللغة، مع تسجيلها موضحة بالأمثلة.

تلك إشارات خفيفة إلى مايجرى فى دروس اللغة العربية فى المراحل الثلاث (الابتدائى - الإعدادى - الثانوى) من خلط وتجاوز فى تقديم المادة، وإن بنسب مختلفة، وإلى مانرى وجوب اتباعه فى هذا الشأن، تصحيحا لهذا النهج غير المقبول الذى من شأنه أن يحرم الدارسين من اكتساب اللغة واستيعاب قواعدها بصورة تؤهلهم للالتحاق بالمراحل الأعلى التى يفترض أن تزيد فى معرفتهم اللغوية أو أن تعمقها، أو أن تضعهم على الطريق الصحيح لاكتساب اللغة الفصيحة الصحيحة وقواعدها بصورة تفى بحقها فى مجتمعها.

وعلى الرغم من هذا القصور البادى فى تعليم العربية بالمدارس الرسمية، فإنه من الممكن بل من الواجب على المسئولين النظر فى الأمر وتصحيح مسار تعليم اللغة العربية فى هذه المراحل. ولكن المشكلة تبقى ماثلة وواقعًا ملموسًا فى المدارس الخاصة والأجنبية.

التعليم الخاص فى مصر تعليم تجارى، يسعى أصحابه والمسئولون عنه إلى جمع المال. قد يكون فى هذا النوع من التعليم اهتمام خاص ببعض المواد، ولكن نصيب اللغة العربية هنا نصيب لا يناسب أهمية اللغة القومية، منهجًا وأداءً. ويبدو من خبرتنا أن إشراف وزارة التربية والتعليم على هذه المدارس إشراف شكلى سطحى لا يفيد فى قليل أو كثير.

أما المدارس الأجنبية فهى تمثل مشكلة حقيقية فى منظومة التعليم العام فى مصر. هذه المدارس لها وجود قديم فى مصر، ولكنها الآن قد ازداد عددها زيادة كبيرة، ورسوم الدراسة فيها رسوم مبالغ فيها إلى حد لا يستطيعه إلا قلة من المواطنين. هذا بالإضافة إلى أن بعضها لا يقبل الطلبة المصريين، ولا أحد يعرف عنها شيئًا ولا يدرى مقرراتها ومناهجها. ويبدو أن وزارة التعليم هى الأخرى لا

تستطيع التدخل فى شئونها، أو فرض مقررات بعينها كاللغة العربية أو المواد الأخرى التى تتناسب مع العادات والتقاليد الوطنية. ومعنى هذا أن خريجى هذه المدارس من المصريين يغادرونها وهم على ما كانوا عليه من جهل باللغة العربية وثقافتها، الأمر الذى يؤدى إلى الانفصال بين الأجيال فى تركيبة المجتمع، وإلى التفاوت الثقافى والطبقى الذى يهدد بناء هذا المجتمع.

كل ما مضى بشأن منظومة التعليم العام فى مصر يشير إلى أنها منظومة واهية تحتاج إلى نظر صادق من المسئولين على المستويات كافة، مع الاهتمام الكافى باللغة العربية. إنها - فى نظرنا - أساس بناء هذه المنظومة وتكاملها فى كل مراحل التعليم، وهى الجامعة لكل ثقافات العرب وأفكارهم التى تميزهم من غيرهم فى صفوف العالم.

فإذا ما انتقلنا إلى التعليم العالى من جامعات ومعاهد عليا، زادت حسرتنا على لغتنا القومية؛ إذ ليس لها موقع على الإطلاق فى كثير من الكليات والمعاهد، لا من حيث المنهج أو الأداء على سواء.

فمعظم الكليات العلمية من طب وهندسة وما إلى ذلك تؤدي موادها باللغات الأجنبية، ومن يحاول من أساتذة هذه الكليات استخدام اللغة العربية أحيانًا، يقذف لسانه بخليط من الأصوات المخلوطة والمغلوطة من عربية وعامية وأجنبية كذلك.

لا ننكر أن هناك اتجاهًا فى الفترات الأخيرة من بعض هؤلاء الأساتذة إلى التعريب، ولكنه تعريب شكلى مظهرى، تنقصه الدقة فى الصياغة والتعبير السليم، لأنه منقول من لغات أجنبية بترجمة غير متأنية، أو صادر عبر فكر ينحو إلى الغربة أحيانًا. ذلك أن التعريب - فى نظرنا - هو فى الأساس تعريب الفكر قبل تعريب التعبير.

ومن الغريب أن هذا الخلط اللغوى فى تقديم المواد له وجود ظاهر فى الكليات غير العلمية، كالتجارة والاقتصاد ....إلخ. والخلط هنا يتمثل فى إيثار

استخدام العـاميات فى معظم المحاضرات، ونادرًا ما يحاول بعض أعـضاء هيئات التدريس تلوين هذه العاميات بشىء، قل أو كثر، من العربيـة الفصيحة الصحيحة، وهى فى الوقت نفسه مشوبة بالأخطاء والتجاوزات.

والأعجب من هذا كله أن هذا النهج غير المقبول يجرى العمل به فى كليات الآداب، بل فى أقسام اللغة العربية ذاتها فى السنوات الأخيرة.

لا ننكر أن هذه الأقـسام لهـا مناهج معلومـة وخطط مرسـومة فـيما يتـعلق بالعربيـة وموادها المختلفـة، وهى خطط ومناهج لها قيـمتهـا وقدرها نظريًا، ولكنا نلاحظ أن بعـضًا من هيـئات التـدريس فى هذه الاقـسام لا يلتـزمون بهـذه الخطط والمناهج، ولا يلتزمون فى كثـير من الأحيان بأدائها باللغة العـربية التى خصص لها هذا القسم دراسـة شاملة وتطبيقًـا دقيقًا. إن نفـرًا غير قليل منهم يقعـون فى تجاوز الخلط بين الفـصـيح والعـامى فـى تقديـم موادهـم، وهو نهج لا يقـبل بحـال من الأحوال فى هذا القسم بالذات.

وقد تأكـد لنا(للأسف الشديد) أن هذا التلوث اللغـوى قد أصاب حـصون اللغة العربية، وأعنى بذلك كليات اللغة العربية بالأزهر ودار العلوم.

يقع هذا الخلط الشائن من شباب أعضاء هيئات التدريس فى هذه الكليات، ظنًا منهم - كمـا يدعون - أن استخدام العـاميات أحيانًا فى تقـديم موادهم يطابق مقتـضى الحال، المتمثل فى صعوبة الأداء باللغـة العربية الفصيـحة لطلاب انتظموا بهذه الكليات وليس لديهم إلفٌ كاف بهذه اللغة التى حرموا من التعامل بها ومعها فى المراحل التعليمية السابقة.

نخلص من كل مـا مضى إلـى أن اللغة العـربية غـريبـة فى وطنها، واخـتلط الحابل بالنابل فى استخـدامها، حتى فقدت قوامها، واهتـز بنيانها، وتوزعت أشلاءً على ألسنة أهليها. وهذا الوضع الشائن للغتنا القـومية ليس مقصورًا على قوم دون قوم. نلاحـظه فى كل المواقع والبيـئات : فى البـيت والشارع والتـجمـعات العـامة

والخاصة، بل فى الهيئات والمؤسسات المعقود عليها مسئولية تمكينها من مواقعها، بالتعليم والدرس وعقد الألفة بينها وبين أهليها.

وعلاج هذه المشكلة اللغوية لا يتحقق بالقانون أو الضغط أو التهديد أو ما شابه ذلك. إنما يكون ويتحقق بوجود القدوة الصالحة فى كل مواقع اللغة القومية، وبخاصة فى الإعلام المنطوق. الإعلام المنطوق يعد فى نظرنا أهم وسيلة لخدمة اللغة، لأن مادته تصل إلى جميع الطبقات مثقفين وغير مثقفين وما أكثرهم فى بلادنا العربية. ويؤكد هذه الوسيلة الإعلامية شعور القوم بأهمية لغتهم، أساس الانتماء وتحقيق الذاتية العربية.

بقيت قضية أخرى ذات أهمية كبيرة فى التواصل اللغوى، وهى قضية كيفيات أداء الكلام فى مواقعه. معلوم لدى الثقات العارفين أن الكلام المنطوق مشكل من بناء وطلاء. يتمثل البناء فى مكوناته ولبناته التى تحدد قوامه وتمنحه هيئات تركيبية، ذات كيان مرسوم محدد الجنبات، وفقًا لقواعد اللغة ونظام هندستها المقررة.

ولكن هذا البناء - وإن كان صحيحًا مقبولاً من حيث التكوين والتأليف - يبقى قاصراً عن أداء وظيفته التعبيرية الدقيقة، ما لم تمسه يد صناع فتكسبه تلوينًا صوتيًا يكسو هيكله، وفقًا لكيفيات تكوينه وطرائق نظمه، حتى يصبح وافيًا بأغراضه التعبيرية ومقاصده فى التوصيل. أو قل، حتى يصبح مطابقًا لمقامه الاجتماعى. معلوم أن المقامات الاجتماعية كثيرة متنوعة، تقتضى تنوعًا فى البناء والتلوين أو الطلاء، حتى يتم الإلف بين المرسل (المتكلم) والمستقبل (السامع)، وحتى تؤدى الرسالة هدفها ووظيفتها خير أداء. ومعنى هذا أن البناء والطلاء يكونان معًا كلاً متكاملاً، لا يتفك أحدهما عن الآخر.

والمقصود بالطلاء فى هذا المقام تلك التلوينات الصوتية التى تتمثل فى بعض الظواهر الصوتية التى تلف المنطوق كله وتلبسه خواص أدائية مميزة، من شأنها أن تصنفه إلى صنوفه التعبيرية.

وهذه التلونيات كثيرة منوعة والإلمام بها ومناقشتها مناقشة مناسبة يحتاج إلى بحث أو بحوث خاصة تفى بأهميتها ودورها فى التوصيل اللغوى المنطوق.

ويكفينا هنا أن نعرض - بإيجاز شديد - إلى ثلاثة منها، بوصفها أبرز هذه التلوينات وأيسرها فى الاستيعاب بالنسبة لغير المتخصصين. هذه الثلاثة هى النبر والتنغيم والفواصل الصوتية.

أولاً - النبر (stress):

النبر فى اللغة معناه البروز والظهور، وفى اصطلاح الدرس الصوتى معناه نطق مقطع من مقاطع الكلمة أو نطق كلمة فى جملة بصورة أوضح وأجلى نسبيًا من بقية المقاطع أو الكلمات التى تجاورها.

والنبر على مستوى مقاطع الكلمة العربية له رسومه وحدوده ومواقعه التى أقرها المختصون فى إطار اللغة العربية الفصيحة الصحيحة فى مصر. ومعنى هذا أن قضية النبر هذه تختلف من بلد عربى إلى آخر، كما تختلف فى اللهجات والعاميات فى جميع الأرجاء العربية.

وهذه الحدود والرسوم والمواقع تختلف من كلمة إلى أخرى، وفقًا لبنيتها الصرفية وعدد مقاطعها. ففى الفعل الماضى الثلاثى مثلاً يقع النبر على المقطع الأول:

ففى "كتب"(كَـ/ تَ/ بَ) ´Kataba، نلاحظ أن النبر وقع على ka، وهو المقطع الأول، ومثله فى ذلك اسم الفاعل منه "كـاتب" ´Kaa/tib أما اسم المفعول منه "مكتوب"، فنبره على المقطع الثانى mak/´taub.

وللنبر على مستوى الجملة أهمية بالغة، إذ هو يفرق بين كلمة وأخرى، وفقًا لبنية الجملة ومواقع وحداتها ومقتضيات مقامات الكلام. ومن المقرر أن الكلمات ذات الأهمية النسبية فى الجملة العربية فى المواقف العادية الحيادية، هى تلك التى تنتمى إلى الأجناس الصرفية الآتية :

١-الأسماء .   ٢-الصفات.   ٣- أسماء الإشارة وأدوات الاستفهام.

٤-المكملات بالحال أو التمييز أو الظرف   ٥- الأفعال الرئيسية.

ومعنى هذا أن الحروف وكثيرًا من الأدوات والضمائر الشخصية وأسماء الموصول ... إلخ، لا يصاحبها نبر فى الحالات الحيادية، وإن كانت تخضع لهذا النبر أحيانًا حسب السياق الداخلى والسياق الخارجى المعروف بالمقام.

وخلاصة هذا كله أن النبر قد تتغير درجته بتغير سياق الحال وأهمية الكلمة المعينة فى الجملة أو العبارة.

ففى العبارة : " أنا لا آكل فى الصباح عادة " يقع النبر فى الحالات الحيادية على الفعل " آكل " والاسم " الصباح" ولكن هذا النبر قد يتغير موقعه أو تزيد درجته بحسب الغرض المطلوب والمعنى المقصود.

فقد يقع النبر على أداة النفى "لا" لإزالة الشك أو التأكيد، وقد يقع على "عادة" للغرض نفسه. وكذلك يقع النبر على الأدوات والحروف إذا وقعت جملاً مستقلة، كما فى نحو : أفهمت ، فتقول "لا" أو "نعم". وهكذا الحال فى كل الوحدات الصرفية التى لا تنال النبر فى الحالات الحيادية أو إذا وقعت موقعها الطبيعى فى الجملة.

ثانيا - التنغيم (intonation) :

الكلام لا يلقى على مستوى واحد، وإنما تتخلله ارتفاعات وانخفاضات فى بعض أجزائه، وفقًا للبنية الداخلية للكلام ومقتضى الحال . وكثيرًا ما يعبر عنه بموسيقى الكلام، أو هو - كما يقول بعضهم - : " الكل فى واحد " . ذلك أنه ينتظم جملة من الظواهر الصوتية الأخرى، كالنبر والتنويع ومط بعض الأصوات والاختلاف فى درجة النغمة وتنوعها.

وإمكانات التنويع فى التنغيم واسعة إلى حد كبير، وفقًا للحالة النفسية وتنوع الكلام وظروفه. وهذا التكوين الموسيقى يعطى الكلام روحًا ويكسبه حيوية، كما يعمل على توضيح المعانى وتمييز أنماط الكلام بعضها من بعض.

فالجملة والكلمة الواحدة قد تفيد معانى متنوعة بتنوع صور نطقها والتنوع فى نغمات أدائها. فقولنا مثلاً : " لا يا شيخ " قد تعنى التحسر أو الندم أو النفى أو التعجب...إلخ وفقًا للحالة المعيّنة، ووفقًا لألوان الموسيقى التى تصاحبها عند النطق لكل حالة.

والتنغيم على الرغم من كثرة صوره وإمكاناته يمكن حصر نغماته الرئيسية فى نغمتين اثنتين، وذلك بالنسبة إلى نهاياتهما فقط. أما صوره الداخلية فهى كثيرة تنتظم عددًا من التنويعات الجزئية. ومعنى هذا أن حسبان النغمات اثنتين فقط مقصور على النهايات، بقطع النظر عن النغمات الداخلية المتناثرة فى المنطوق كله.

والنغمتان الرئيسيتان قد اتفق على تسميتهما بالنغمة الهابطة والنغمة الصاعدة.

النغمة الهابطة falling tone وسميت كذلك لاتصافها بالهبوط عند نهايتها على الرغم مما قد تنتظمه من تلوينات داخلية جزئية.

ومواقع النغمة الهابطة كثيرة، ويكفى أن نأتى بأمثلة لها، لمجرد التوضيح، ومن أهمها:

(١) الجمل التقريرية:

ونعنى بها تلك الجمل التامة ذات المعنى الكامل غير المعلق. كما فى نحو: "الحمد للّه" فى المواقف الحيادية.

(٢) الجمل الاستفهامية بالأدوات الخاصة.

وهى الجمل التى تحتوى على أداء استفهام خاص مثل: أين - مَنْ - متى - كيف...إلخ. مثل: أين أخوك؟ متى حضر؟

(٣) الجمل الطلبية.

ونعنى بها تلك الجمل التى تحتوى على فعل أمر أو نحوه، مثل: "هات الكتاب".

النغمة الثانية وهـى النغمة الصاعدة rising tone وسميت كذلك لصعودها فى نهايتها، على الرغم من احتمال تنوع مكوناتها الجزئية الداخلية.

ونمثل لها بأمثلة موضحة، منها:

(١) الجمل الاستفهامية التى تستوجب الإجابة "بلا أو نعم" مثل: حضر أخوك؟

(٢) الجمل المعلقة.

والمقصود بها الكلام المعلق غير التام المرتبط بما بعده. وأظهر مثال لذلك الجزء الأول من الجمل الشرطية، مثل : إن حضرت، أكرمتك. وهذا المثال فى جملته ينتهى بنغمة هابطة، إذ إن الكلام قد انتهى، وأصبحت الجملة كلها تقريرية. أما الجزء الأول وهو جملة الشـرط "إن حضرت " فهـو كلام معلق، أى لم يتم، ويتـوقف تمامه على جواب الشرط، وينتهى بنغمة صاعدة. ويستدل على ذلك فى الكتابة بوضع الفاصلة بعده (،). وهناك بجـانب هاتين النغمتـين الرئيسيـتين التى يمكن تحديـد مواقعهـما تحديدًا دقيـقًا، نغمات أخـرى كثيرة تتنوع وفـقًا لتنوع التراكيب ومـقامات الكلام أو الحالة النفسية للمتكلم والحالة الاجتماعية والثقافية للمتلقين.

ومهما يكن من أمر، فإن التنغيم بـكل أنماطه ومواقعه ذو أهمية بالغة فى أداء الكلام أداءً صحـيحًـا. وتظهر هذه الأهمـية فى توثيق الصلة بين المتكلـم والسامع وتحقيق الهدف المعين من الكلام : ويظهر ذلك بوجه خاص فيما يلى :

١-من الوظائف الأساسية للتنغيم الوظيفة النحوية، إذ إن نمط التنغيم يدل على نمط التركيب النحوى : تقريرى، طلبى، تعجبى، ندائى، تعظيم، تحقير ...إلخ.

٢-يدل على الأوضاع الثقافية والاجتماعية للمرسل والمتلقى معًا والعلاقة بينهما.

٣-هو مرآة الصحة الداخلية للنص ومطابقتها للصحة الخارجية.

وحقيقة الأمر أن الكلام عن التنغيم وفى التنغيم يحتاج إلى دراسة وافية مستقلة.

وقد أتينا على شيء ذى بال فى هذا الأمر فى كتابنا الموسوم بـ "فن الكلام".

ثالثا : الفواصل الصوتية.

الفواصل الصوتية تعنى بعض الظواهر الصوتية التى تشكل مع النبر والتنغيم موسيقى معينة تكسو المنطوق كله. وهذا التسلسل الصوتى له أهمية بالغة تنبئ عن خواص التركيب وطبيعته ودلالته.

الفواصل التى نعنيها الآن هى : الوقفة stop والسكتة pouse والاستراحة أو أخذ النفس.

هذه الفواصل فى جملتها ذات أهمية كبيرة فى جودة الإيصال والتوصيل. ذلك أن هذه الفواصل لها ارتباط وثيق بعنصرين مهمين من عناصر التوصيل. الأول دلالتها على صحة التركيب من الناحية اللغوية الشاملة، من أصوات وصرف ونحو، وثانيهما إفصاحها عن المعنى العام للتركيب إذا جاءت مطابقة لما يقتضيه مقام الكلام. ولكل من هذه الفواصل مواقع كثيرة يحتاج بيانها إلى بحث مستقل. ويكفى هنا أن نشير إلى أمثلة تنبئ عن خواص كل منها.

الوقفة:

لها مواقع كثيرة وكلها مرتبطة بخواص بناء الكلام، وأهم مواقعها نهاية الجمل التقريرية الكاملة المبنى والمعنى، طبقًا لمقام الكلام. ومن أهم خواصها أنها تنتهى بنغمة هابطة، كما فى قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) ورمزها فى الكتابة النقطة [.].

ومن الجدير بالذكر أن الوقفة فى الكلام الصحيح لا تقع بين المضاف والمضاف إليه، وكذلك الحال بين الفعل وفاعله، كما لا يجوز وقوعها بينهماوبين المفعول...إلخ.

السكتة:

السكتة أخف من الوقفة وأدنى منها زمنًا. وهى فى الحقيقة لا تعنى إلا مجرد تغيير خفيف فى مسيرة النطق بتغيير نغماته، دليلاً على أن ما يسبقها من الكلام مرتبط أشد الارتباط بما يلحقها. والقاعدة أنها تكون مصحوبة بنغمة صاعدة، وعلامتها فى الكتابة [،].

وتقع السكتة فى النطق الصحيح فى نماذج معينة من التراكيب. وهى النماذج التى تنتظم طرفين يكونان وحدة متكاملة، ولا يستغنى أحدهما عن الآخر، وفقًا لهيئات تركيبهما ودلالة المنطوق كله.

من أهم هذه النماذج وأوضحها فى هذا الشأن ما يلى :

١-الجمل الشرطية؛حيث تقع السكتة بين طرفيها (الشرط والجواب)، كما فى نحو إن نجحت، كافأتك، وقوله تعالى : (ومن يتق الله، يجعل له مخرجًا).

٢-تقع السكتة أيضًا فى كل الجمل المحكومة برابط من الروابط العامة ، مثل : بينما، بينا، لو، لولا، كلما...إلخ. ومن أمثلة ذلك، قوله تعالى : (كلما دخل عليها زكريا المحراب، وجد عندها رزقًا) وقوله : (لولا أنتم، لكنا مؤمنين).

٣-تقع السكتة أيضًا قبل أداة الاستدراك «لكن» وأداة الإضراب " بل "، وذلك بعد كلام مستدرك عليه أو مضروب عنه فى نحو قولنا : " سمعت ما يقول، ولكنى غير متأكد "، ونحو : " ليس الأمر مقصورًا على ذلك، بل تعداه إلى مجالات أخرى»...إلخ. وفى النهاية نقول : الكلام بناء وطلاء ولا يستغنى أحدهما عن الآخر.

فمهما يكن الكلام صحيحًا من حيث بناؤه اللغوى، فإنه لا يزال قاصرًا عن أداء وظيفته فى الإيصال والتوصيل ما لم يكسوه طلاء مناسب للمقام.

والبناء كما قررنا سابقًا، يتمثل فى التشكيل اللغوى وقواعد هذا التشكيل على جميع المستويات اللغوية، صوتية وصرفية ونحوية ودلالية. ولكن هذا البناء فى الكلام المنطوق من الصعب تصنيفه من حيث الجودة وأداؤه الرسالة الدقيقة ما لم يلون بألوان صوتية توائم خواص هذا التشكيل ومطابقته للمقام المعين.

وتحقيق دور هذا البناء وذاك الطلاء يحتاج إلى خبرة ودربة، أساسها القدوة الصالحة للاقتداء. كل هذا يؤكد مقولتنا " اسْمَع وأسْمِع "؛ إذ إن هذا المبدأ يعنى أن اللغة المكتسبة عن طريق سماع المستوى اللغوى الذى يود المتكلم الفوز به، والإتيان بكلامه وفق هذا المسموع، فصيحًا صحيحًا كان أم عاميًا ...إلخ. ومعنى هذا كله أن اكتساب اللغة العربية الفصيحة الصحيحة وتمكينها من مواقعها الآن أمر فى غاية الصعوبة لغياب القدوة الصالحة والنموذج المبتغى للغتنا القومية، لغة القوم أجمعين التى تنسب إلينا وننسب إليها فى التصنيف اللغوى العالمى [1].

(١) راجع كتابنا «فن الكلام».

جدلية الفكر العربى
فى تناول النحو

ليس بخاف أن اللغة العربية الآن بعيدة المنال على كثير من أهليها هنا وهناك بلا فرق. وليس بخاف أيضًا أنهم يرددون - ليل نهار - شكواهم من صعوبتها وجمودها.

لكنهم - فى الوقت نفسه - يركزون فى شكاواهم على "النحو"، ويشتطون فى وصفه بالعائق الأكبر (أو الأوحد) فى سبيل عقد الألفة بينهم وبين لغتهم، وحرمانهم من حظوة التعامل بها والحوار معها فى مواقعها المناسبة.

ومعلوم أن الشكوى من " النحو" لها أصول قديمة، ظهرت آثارها فيما قرأنا وسمعنا عنه من جدل ومناقشات حول هذه القضية وأسبابها وكيفيات التخلص منها. جرى هذا الجدل وتلك المناقشات بين اللغويين المحترفين أنفسهم، وبينهم وبين الشعراء أيضًا.

ولكن هذه الشكوى ازدادت مساحتها واتسعت بين العامة والخاصة فى العقود الأخيرة، حتى إنهم فقدوا الأمل فى إزاحتها والتغلب عليها، ومن ثم انصرفوا عن اللغة صاحبة هذا النحو وهجروها إلى مسالك لغوية أخرى.

وهنا نقول : نعم، العربية الفصيحة الصحيحة بالمفهوم الموروث، فيها صعوبات ظاهرة، تقود العامة وبعض الخاصة فى وقتنا الحاضر إلى هجرها والانتحاء نحو غيرها من وسائل التعبير الأخرى. ولكن :لم كان هذا الزعم بأن «النحو " بالذات هو أساس هذه المشكلة والسبب الحقيقى فى وجودها ؟

الرأى عندنا أن الصعوبة ليست فى "النحو" وحده.إن الصعوبة واضحة فى كل المستويات اللغوية، صوتية وصرفية ونحوية، وإن بدرجات متفاوتة. أو قل - فى جملة واحدة- الصعوبة هى صعوبة اللغة كلها على جموع أصحابها.

ولنا الآن أن نتساءل : لم كـانت هذه الصعوبة؟ أهى من طبيعة اللغـة العربية أم أنها حصـيلة ظروف زمانية ومكانية لحـقت بها فى سيرتهـا الطويلة، انعكاسًا لما جرى ويـجرى فى بيـئات أهليـها من أجـواء غائمـة محـرومة من الحـيوية وخـبرة التفاعل والحوار مع أحداث الحياة المتجددة المتطورة علميًا وثقافيًا واجتماعيًا؟

الإجابة عن هذه التسـاؤلات أمرها سهل ميسور.يقرر الثـقات من الدارسين أن ليس هناك لغة تصـعب بطبيعتهـا على أصحابها، وإنما الصـعوبة وانعدام الإلف بين القبيلـين يرجع كل ذلك إلى أسباب من صنع هؤلاء الصحـاب أنفسهم؛ أو – فى أحسن تقـدير – من عدم إدراكـهم لها، وتغـافلهم عن النظر فيـها لإزاحتـها أو معالجتها بأسلوب علمى راشد.

ونحن من جـانبنا نحاول تفـسير أسـباب هذه الصـعوبة المدَّعى وصم الـلغة العربية بها. الأسباب كثيرة متنوعة، وفى الإمكان إيجازها فى ثلاثة أسباب.

الأول:

يتمثل فى عزل اللغة العربية الفصيحة الصـحيحة عن توظيفها نطقًا وكتبًا إلا فى النادر القليل من المواقـف والمناسبـات. وهذا النادر نفـسه إذا حظى بالتـوظيف جاء محـشواً بالأغلاط والتجاوزات. ذلك أنهم انفـضوا من حولها وتفرقوا شـيعًا، وتنابذوا فيما بينهم باللسن النافرة الناشزة فى صورة لهجات ورطانات.

يرجع ذلك كله إلى ضعف الثقافـة اللغوية الصحيحة، لأسباب ثقـافية عامة واجتماعية وضعف الانتماء إلى القومـية بمعناها الدقيق. هجر القوم لغتهم الجامعة لأفكارهم وتوجهاتهم، فـآوت إلى ركن غير رشيد، واتهموها بـالجمود والتخلف. ولم يدركوا أن اللغـة (أية لغة) لا تحيا ولا تنمـو ولا تزدهر بنفسها، وإنما يتـحقق ذلك كله بالتعامل بها والحوار معها.

ومعلوم أن اللغة العربية ظاهرة اجتماعيـة، وليست كائناً حيا، كما يزعم غير العارفـين. ومعنى ذلك – بكل وضوح – أن وضـعها من حيث القـوة أو الضعف،

ومن حيث التكامل أو العور والقصور يرتبط كل الارتباط وأوثقه بحال أهليها من حيث أوضاعهم الحياتية التى تنعكس بالطبع لا بالصنع على لغتهم.

فاتهام اللغة بالصعوبة والتعقيد إنما هو اتهام ظالم، وينبغى أن يوجه إلى أصحابها صانعى هذا الوضع غير المقبول. إنهم لم يدركوا أهمية احتضانها والائتناس إليها وبها ومحاولة الحوار معها، وإن بالتدريج، حتى يصلوا بها وبأنفسهم إلى موقع متميز فى صفوف العالم الهائج المائج الذى يهدد بذوبان لغتهم وفقدان شخصيتهم.

والأمر فى ذلك كله يحتاج إلى قدوة صالحة ترسم الخطوط والحدود التى من شأنها أن تشجع السائرين فى طريق "العوربة" رغبة فى الوصول إلى الهدف المقصود.

والبدء فى هذا الطريق يعتمد على ذلك المبدأ الذى وضعناه فى هذه السبيل، وهو الموجز فى قولنا: "اسمع وأسمع". وتفسير ذلك واقعًا علميًا أنك إذا أردت أن تكتسب لغة ما أو أن تجودها وتصقلها... إلخ، فما عليك إلا أن تكيف نفسك إلى الاستماع الدائم إلى القدوة، فتنطبع حقائق اللغة فى ذهنك، ومن ثم تستطيع التوليد منها وتأتى على منوالها فى المواقف المناسبة. لقد مررت بهذه التجربة ذاتها فى الشهور الأولى من بعثتى إلى لندن، حيث وُفِّقْتُ إلى تجويد معرفتى المتواضعة باللغة الإنجليزية باتباع هذا المبدأ الذى أخذ بيدى وحقق لى مستقبلى العلمى المرغوب، وهو الحصول على درجتى الماجستير والدكتوراه.

الثانى:

السبب الثانى فى الشعور بصعوبة العربية وازدحام مشكلاتها يتمثل فى المنهج الموروث فى جمع اللغة وتقعيد قواعدها.

من المعلوم والمشكور أيضًا أن أسلافنا من قدامى اللغويين كانوا حريصين أشد الحرص على جمع لغتهم من هنا وهناك ، بقطع النظر عن المستويات والبيئات

اللغوية المختلفة، اعتزازًا بلغتهم وتقديرًا لكل ما يصدر عن اللسان العربى الذى يميزهم ويصنفهم أمة واحدة.

ومعلوم أيضًا لدى الثقات العارفين أن لكل لغة فى محيطيها العام والخاص ظلالاً هامشية تختلف فى قليل أو كثير فى بعض الظواهر اللغوية الخاصة بقبيل دون قبيل، انعكاسًا لأجوائهم الحياتية، اجتماعية كانت أم ثقافية أم عرفية... إلخ. وليس هذا فقط، بل لم يكن من النادر انتحاء بعض هؤلاء الأسلاف نحو الرواة للاستماع إليهم واستشارتهم فيما جمعوا من مادة للاستزادة والإضافة، على الرغم من استحالة إتيان الرواة بالصورة الحقيقية لما يرْوُون.

جمعوا هذا الذى جمعوا من مصادر مختلفة وضموا بعضه إلى بعض دون تحديد لخواص ونوعيات هذه المصادر. التى تنتظم فروقًا واختلافات فى جملة المادة التى جمعوها.

وانطلقوا بعد إلى التقعيد ومحاولة تشكيل البناء العام لقواعد كل ما جمعوا، صوتية كانت هذه القواعد أم صرفية ونحوية.

غلب المنهج المعيارى على عملهم فى التقعيد. والمنهج المعيارى mormative or prescriptive approach - كما هو معلوم - لا يعنى بوصف الواقع، وإنما يعنى بإخضاع المادة المدروسة لنمط واحد من التقعيد، يرمى إلى بيان المثال والنموذج الذى ينبغى اتباعه، وأن تجاوزه أو الخروج عنه يعد خطأ.

وهنا اصطدم الدارسون بوجود أمثلة من الظواهر اللغوية التى يصعب إخضاعها لمنهجهم هذا الذى اختاروا، لوجود فروق هامشية أو غير هامشية فى المادة المجموعة التى لم تسلم من احتوائها على أمثلة متفقة فى شىء ومختلفة فى شىء آخر.

فماذا فعلوا؟ حاولوا تحليل هذه الأمثلة، بردها إلى ما رسموه من معايير وضمها إلى نظام واحد، بطريق التأويل أو الافتراض والتقدير، أو الجواز وعدم

الجواز أو الراجح والمرجوح والأرجح، فى تسجيل القاعدة الواحدة، متبعين فى ذلك مبدأ وحدة النظام فى التحليل اللغوى monosystemic principle، مستعينين فى ذلك بخليط من الأفكار الفلسفية والمنطقية التى ربما تساعدهم على تحقيق بغيتهم.

وهكذا اعوجّ الطريق فى تقعيد اللغة، ومن ثم ثقل الحمل على مستخدميها ومتعلميها جميعًا، وصاح الناس - عامتهم وخاصتهم - بالشكوى من صعوبة لغتهم، فتفرقوا من حولها شيعًا ولوثوا ألسنتهم بأنماط من الكلام يصعب تصنيفه بناءً متكاملاً ذا خصوصيات مميزة.

الثالث:

يرجع السبب الثالث فى الشكوى من صعوبة العربية الفصيحة والزعم بعدم قدرتهم على عقد الإلف بينها وبينهم إلى فقدان القدوة الصالحة التى من شأنها أن تزيل الحاجز وتدفعهم إلى محاولة توظيفها قدر الإمكان فى مواقعها الحياتية المناسبة.

لا ينكر أحد غياب هذه القدوة الفاعلة في الجو العربى، فى العقود الأخيرة من تاريخ العربية، كما يشهد على ذلك واقع هذه القدوة ودورها فى التثقيف اللغوى فى العصر الذى نعيش فيه الآن.

ولتكن البداية بالقدوة واضعة حجر الأساس فى بناء الإنسان وإعداده لمواجهة الحياة والتكيف مع أحداثها بالوسائل التى تحدد موقعه ومكانته فى صفوف مجتمعه.

هذه القدوة الأولى الراسمة لخطوط المسيرة الحياتية هى الأم. ولغتها هى السلاح أو الآلة التى تمنحها لوليدها وتدربه على تفعيلها بصورة تصنع منه لبنة متسقة ومتآلفة مع سائر لبنات البناء الكبير، وهو المجتمع الذى يضمه إلى أحضانه.

وهنا نتساءل : ما نوع هذا السلاح وما مادته التى من شأنها الإسهام فى تشكيل بناء متكامل خال من التنافر والاعوجاج؟

نقرر - بالأسف الشديد - أن الأم العربية الآن لا يرشحها الواقع الحاضر لصنع هذا السلاح أو منحه لولدها. ذلك أن الأغلبية من الأمهات العربيات لسن فى وضع ثقافى يكافئ دورهن فى التثقيف اللغوى المنشود. العربية الفصيحة الصحيحة - أساس البناء القومى - غائبة عن أذهانهن ووجدانهن، ومن ثم لم نجد لها أثرًا أو انعكاسًا على ألسنتهن. لسان معظم الأمهات العربيات مشغول- فى أغلب أحواله - بالدردشة المحشوة مادتها بأخلاط من الأصوات عصية التكامل مضمونًا ونطقًا : عربى كسيح وعامى أو عاميات ورطانات متباينات بصعب تصنيفها أو حسبانها نمطًا من الكلام الذى يرشح نفسه قدوة لتثقيف الناشئة. ويزيد الأمر تجاوزًا واضطرابا ما يصنعه بعض المثقفات أحيانًا من تلوث كلامهن بكلمات وعبارات أجنبية لا يقتضيها السياق، مشوبة - فى الوقت نفسه - بالخطأ فى النطق وعدم إدراك معانيها الدقيقة . وهكذا، ذهبت القدوة الأولى فى التثقيف اللغوى أدراج الرياح .

فلننظر الآن فى المواقع الأخرى ذات الأهمية فى هذا الشأن، علنا نجد فى سلوكها اللغوى ما يفى بمسئوليتها ويؤكد دورها بوصفها القدوة المرسومة حدودها وأبعادها.

من أهم هذه المواقع دور التعليم بمراحله المختلفة. لا ننكر أن للغة العربية وجودًا من نوع ما فى هذه المراحل، وإن بنسب مختلفة. ولكن هذا الوجود نفسه وجود نظرى شكلى، يتمثل فى المناهج والمواد المقررة المفروض تقديمها إلى الطلاب. وهذا التقديم - للأسف الشديد - يأتى قاصرًا عن أداء هدفه وعاجزًا عن التعليم أو التثقيف اللغوي المنشود.

ذلك أن هذا التقديم يسلك - فى أغلب الحالات - مسلكًا مغلوطًا مخلوطًا بأساليب نافرة من أنماط الكلام، بحيث يفقد القدوة الصالحة أو المثل المقبول.

ففى الحضانة والتعليم الابتدائى تعوج اللسن وتقذف بأصوات لا هوية لها، من عربى كسيح محشو بالعاميات والرطانات واللغات الاجنبية. يحدث هذا دون

وعى من مربين ومربيات ليست لديهم الخبرة الكافية والإعداد السليم لأداء هذا الدور القومى، ذى الأهمية البالغة فى تربية الناشئة.

وهناك فى المرحلتين الإعدادية والثانوية محاولات جادة من بعض المعلمين لإنقاذ العربية من ورطتها وتقريبها من الطلاب. ولكن هذه المحاولات - للأسف الشديد - لم تسلك الطريق الصائب لإنجاح هذا القصد الطيب. ذلك أنهم يركزون على تقديم قواعد اللغة (والنحو بالذات) بصورة لا تغنى فتيلاً، حيث يقدمونها من خلال أمثلة منزوعة من سياقاتها نزعًا عشوائيًا، أو أمثلة تقليدية جافة مصنوعة صنعًا خاليًا من اتساق النظم والتعبير عن معان تلائم ثقافات المتعلمين وأوضاعهم الاجتماعية والحياتية، وهم فى كل ما يفعلون يسلكون مسلك التلقين والحفظ دون مناقشة أو حوار أو عود إلى استشارة أساليب اللغة صاحبة هذه القواعد.

وتكون النتيجة الحتمية لهذا النهج غير الموفق حفظ القواعد وصبها صبًا فى أذهان الدارسين، كما لو كانت قوالب جامدة معزولة عن البناء الكبير الذى نهدف إلى تعرفه أو إجادته وإتقانه، وهو اللغة. إن الطلاب فى هذه الحالة يعرفون القواعد وينجحون فى امتحانها، دون أن يدركوا قيمها أو مواقعها فى هذا البناء، لأن البناء (وهو اللغة) قد حرموا من تعرفه تعرفًا يرشدهم إلى هذه القيم والمواقع.

وهكذا فشل التعليم فى هاتين المرحلتين فى إرساء القدوة الصالحة فى رعاية العربية والعمل على تشجيع التعامل بها.

أما فى التعليم العالى بجامعاته ومعاهده فالأمر يحتاج إلى النظر وإلى وقفة قومية خالصة من المسئولين هناك، حيث إن مواقعهم فى وطنهم تمثل أعلى درجات القدوة فى التعليم والتثقيف وإعداد رجال المستقبل، أمل الأمة وعماد قوتها وازدهارها. ولكن يبدو لنا من حاضر واقعهم أنهم تناسوا دورهم أو تجاهلوه وانشغلوا عنه فيما يتعلق بالأساس الأول والأقوم فى بناء المجتمع وتمكين هويته وتأكيدها، وهو اللغة.

اللغة العربية بمعناها القومى ليس لها وجود يعدل أهميتها فى الكليات والمعاهد العليا، لا فى استخدامها فى تقديم المواد المختلفة، ولا فى العمل على تجويدها أو تنمية وتعميق محصول الواردين إليها من المراحل التعليمية السابقة.

ففى معظم الكليات العلمية تزحزحها اللغات الأجنبية عن مواقعها أو تغشيها بأخلاط من اللغات الأجنبية أو العاميات، بحيث تسيطر البلبلة اللغوية التى تحرم الطلاب من استيعاب المادة، وتقطع حبل الوصل بينهم وبين اللغة القومية.

وفى الكليات والأقسام ذات الاختصاص تجد اهتمامًا ملحوظًا من الناحية النظرية المتمثلة فى المناهج ومفردات المادة الواجب تقديمها للدراسين. وهذا شىء يذكر فيشكرون عليه، ولكن تفعيل هذه المناهج عمليًا وطرح هذه المفردات وتوصيلها إلى الطلاب بصورة تؤتى أكلها وتنجز أهدافها من تمكين العربية الفصيحة الصحيحة فى الأذهان أو تعميق وتوسيع دائرتها فى الاستخدام الفعلى نطقًا وكتبًا، يشوبها العور والقصور فى الأداء وأساليب التقديم والتوصيل والشرح والبيان.

فهناك طائفة من الأساتذة - والشباب منهم على وجه الخصوص - تؤثر الانشغال بالفروع دون الأصول أو الطلاء دون البناء، فيقصرون دورهم على تدريس "الأدب" وما ارتبط به من تاريخ وشخوص ونوعية الإنتاج، محاولين تجميل عملهم هذا بألوان من الرؤى والاتجاهات فى تقييم هذا الأدب فى إطار ما يعرف "بالنقد الأدبى".

وطائفة ثانية تحاول أن تسلك - اختيارًا أو اضطرارًا - المسلك الصحيح فى درس البناء اللغوى ومكوناته من مفردات ووحدات، مع فائق الاهتمام بأساس هذا البناء من قواعد وعُمُد تشكل هذا البناء بصورة صحيحة.

هذه الطائفة الثانية تسلك هذا المسلك الصحيح المقبول من حيث المبدأ، ولكن رجالها - من حيث التطبيق والأداء والتوصيل - ينزعون منزعين مختلفين. فمنهم من يقصر عمله على جزء معزول من البناء اللغوى، دون مراعاة كافية لضرورة

الربط والتآلف بين الأجزاء التى تشكل فى النهاية بناًء متكاملاً. إن هذه الفئة من الأساتذة غالبًا ما تكتفى بتقديم باب أو أبواب معينة من قواعد اللغة، إما لقصور فى معرفتهم بالأبواب الأخرى، وإما للاكتفاء بما اختاروا لأنه يمثل كل حصيلتهم من المعرفة اللغوية التى سبق أن عرضوا لها فى رسائل الماجستير أو الدكتوراه.

أما أصحاب المنزع الثانى من طائفة المهتمين بالبناء اللغوى -وهم قلة قليلة- فهم يجهدون أنفسهم بحق وصدق فى سبيل تمكين اللغة وخدمتها فى إطار متكامل يجمع بين قواعدها وظواهرها فى نظام متآلف الوحدات والمكونات التى تشكل البناء الذى تقدمه لطلابهم.

هذا قصد جليل مشكور، ولكن غالبيتهم مع ذلك لم يوفقوا التوفيق المبتغى فى الوصول إلى مقاصدهم تلك الطيبة. ذلك أن بعضهم لا يزال يعتمد على المناهج القديمة الموروثة فى تقديم المادة، فيشغلون أنفسهم بالآراء المختلفة فى تفسير القاعدة الواحدة، ويحاولون تفسيرها بالتأويل والافتراض أو بالشذوذ أو نسبتها إلى قبيلة أو لهجة، الأمر الذى يشتت أفكار الدارسين ويحرمهم من استيعاب ما يراد تقديمه. وبعض آخر يخلط بين القديم والجديد من المناهج ويأتى بأمثلة التوضيح والبيان منزوعة من سياقاتها، أو مصنوعة صنعًا عشوائيًا لا يفيد فى قليل أو كثير. وبعض ثالث يلقى بنفسه فى خضم النظريات ورجالها ومدارسها، متغافلاً إلى حد واضح عن تقديم ظواهر اللغة وحقائقها.

هذا بالإضافة إلى تلك الظاهرة المؤسفة التى تشيع الآن بكثرة بين أساتذة اللغة العربية، وأعنى بها ظاهرة الخلط الواضح بين الفصيحة والعاميات أو الاكتفاء أحيانًا بالعاميات فى تقديم مواد العربية وثقافتها.

وهكذا اهتزت القدوة العالية وتنافرت أركانها، فاهتزت أفكار الطلاب وتنافرت اتجاهاتهم.

بقى أن نشير إلى موقع معين يحسب فى نظرنا أهم قدوة وخير سبيل فى التثقيف اللغوى على المستويين العام والخاص. وأعنى بذلك الإعلام المنطوق فى الإذاعة والتليفزيون. ولنا فى هذا الشأن حديث أكثر تفصيلاً فيما بعد (ص ١٠١ و وما بعدها).

والسؤال المهم الآن : لم كانت الشكوى فى الأوساط العامة والخاصة من النحو وحده؟

الإجابة سهلة ميسورة : إنما كانت الشكوى من صعوبة اللغة وعدم القدرة على التعامل بها مركزة وموجهة غالبًا إلى "النحو" لشيوع الخطأ نطقًا وكتبًا فى تلك الخاصة المعينة التى من السهل تعرّفها وإدراكها من كل من له معرفة متواضعة باللغة. هذه الخاصة هى الإعراب، فى حين أن الإعراب ليس النحو بحال، وإنما النحو له خواص أخرى أهم بكثير من الإعراب الذى لا يعدو أن يكون واحدًا منها فى اللغات المعربة، ومنها العربية الفصيحة الصحيحة. ومن هنا نؤكد رأينا المعبّر عنه بقولنا : الإعراب ليس النحو وليس النحو الإعراب.

النحو Syntax – كما يعرفه الثقات – هو علم التراكيب الذى يعنى النظر فى هذه التراكيب وتحليلها من وجهات ثلاث وظائف أساسية فى كل اللغات، هى:

١ – الاختيار، أى اختيار المكونات التى تشكل التركيب لإفادة المعنى المقصود، وفقًا لسياقه، صغيرًا كان هذا التركيب أم كبيرًا.

٢– الموقعية، أى وضع كل مكون من مكونات الجملة فى موقعه الصحيح، طبقًا لقواعد اللغة المعينة، سواء أكان هذا المكون اسمًا أو فعلاً أو أداة... إلخ.

٣– الربط بين هذه المكونات بوسائل الربط المقررة فى اللغة المعينة، ولهذا الربط أهمية كبيرة، إذ لا يكفى أن تقع المكونات فى مواقعها دون ربط بينها، وإلا أصبحت المكونات أشبه بوضع أحجار البناء بعضها بجوار بعض، دون سبكها سبكاً محكمًا.

لا ننكر أن هناك وظيفة رابعة - أو قل - خاصة مميزة للنحو فى اللغات المعربة، ومنها اللغة العربية بمعناها العلمى الدقيق. هذه الخاصة أو الوظيفة هى الإعراب.

ولكن الإعراب - كما هو واضح - ليس مكونًا من مكونات التراكيب، وإنما هو المرآة التى تعكس ما يقع فى التركيب من صحة أو خطأ فى بناء هذا التركيب. ولنا أن نوضح ما نقول بالأمثلة التى تؤكد هذا التفسير.

تأمل معى المثال التالى الذى يكثر وقوعه نطقًا وكتبًا من أهل العربية - ومنهم متخصصون -: "إن لدينا أعمال كثيرة"، برفع كلمة "أعمال"، وهو خطأ بلا شك. ولكن الخطأ فى حقيقة الأمر ليس فى الإعراب ذاته، وإنما هو خطأ فى موقعية مكونات التركيب. ذلك أن المتكلم أو الكاتب لم يدرك أن عبارة "لدينا" شبه جملة، وغاب عنه أن شبه الجملة لا يقع مبتدأ بحال، والقاعدة فى لغتنا تقول: ما لا يقع مبتدأ لا يقع اسمًا لإن ولا اسمًا لكان...إلخ.

إذن اسم "إن" فى المثال السابق هو "أعمال" فيجب نصبه، ولكنه جاء مرفوعًا لعدم إدراك هذه القاعدة أو جهلاً بها. والذى كشف عن هذا الخطأ فى البناء هو الخطأ فى الإعراب. فالإعراب فى اللغة العربية (وغيرها من اللغات المعربة) خاصة مهمة، وظيفتها الإفصاح عن الصحة أو الخطأ فى الكلام، أو قل: هو الدليل الذى يسهل إدراكه على أن البناء صحيح أو خطأ من حيث خواص وحداته المكونة له. إنه دليل كاشف عما وقع فى هذا البناء من عور أو تجاوز، وليس مكونًا من مكوناته.

ومن هنا نكرر ونؤكد أن الإعراب ليس النحو وليس النحو الإعراب، على عكس ما يفهمه العامة وبعض المتخصصين وكثير من معلمى اللغة فى مراحل التعليم المختلفة. وربما يؤيدنا فى ذلك أن الكلام - فى سياقه الداخلى والخارجى - يمكن فهمه دون علامات الإعراب، ولكنا مع ذلك لا نجيز إهماله أو الاستغناء عنه، لأنه مازال المنبه والمرشد إلى الصحة أو الخطأ فيما نقول أو نكتب.

وحقيقة الأمر أن النحاة بالغوا فى الاهتمام بالإعراب. وهو اتجاه مقبول، ولكنهم فى الوقت نفسه لم يوجهوا قدرًا كافيًا من الاهتمام بوظائف النحو الأخرى، التى هى فى واقع الأمر، قوام النحو، وهى النظر فى مكونات التركيب ومواقعها ووسائل الربط بينها. وجاء اهتمامهم هذا المتواضع بتلك الوظائف مفرقًا متناثرًا، ومشارًا إليه إشارات غير كافية فى أبواب النحو التى صنفوها ووزعوها طبقًا لحالات الإعراب ووجوهه، حتى ليُظن أن النحو هو الإعراب وأن الإعراب هو النحو.

ومن اللافت للنظر أن هذا المنهج فى دراسة النحو المجاوز لأساسيات التحليل العلمى الدقيق ،هو المنهج السائد بل المسيطر على أعمال المتأخرين من النحاة بصفة خاصة. وسار على هذا المنهج أو أسوأ منه جملة من المشتغلين بالنحو الآن فى مراحل التعليم وغيرها من المواقع اللغوية المسئولة. وأعنى بهم أولئك الذين يدعون التجديد والتطوير فى الدرس اللغوى فى عصرنا هذا الذى نعيش فيه.

ومن الجدير بالذكر أن البلاغيين كانوا أعمق نظرًا وأوسع إدراكًا لمقاصد النحو وغاياته من النحويين. وجه البلاغيون اهتمامًا كبيرًا - نظرًا وتطبيقًا - إلى أساسيات التحليل النحوى بمعناه الدقيق، وبخاصة فيما يتعلق باختيار مكونات التركيب ومواقعها وضمها بعضها إلى بعض وإلى الربط بينها.

يظهر ذلك كله واضحًا فيما صنعوا وسجلوه فى آثارهم، وخصصوا له علمًا من علوم البلاغة، هو ما أطلقوا عليه "علم المعانى". ويبدو أن أستاذنا وشيخنا الكبير المرحوم على السباعى كان مدركًا تمام الإدراك لقيمة ما صنعه البلاغيون ومستوعبًا لأهميته فى التحليل النحوى على مستوى أرقى وأدق مما سار عليه النحويون، فسماه "النحو العالى" وهذا حق وصدق.

ولنا أن نشير هنا - بكل تقدير واعتزاز - إلى ما رسمه هؤلاء البلاغيون فى هذا الشأن؛ بتسجيل شىء يسير مما أتى به معلمهم ورائدهم عبد القاهر الجرجانى فى كتابه الأشهر "دلائل الإعجاز".

يقول عبد القاهر، مشيراً إلى المبدأين الأولين فى تأليف الكلام وتحليله، وهما اختيار المكونات ومواقعها المقررة فى المنظوم من جملة أو عبارة: "وما النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله". ومعناه باختصار شديد أن التأليف أو المنظوم نظمًا صحيحًا لا يكون ولا يتحقق إلا بوضع مكونات التركيب المختارة (كلامك)، كل فى موقعه وفقًا لقواعد النحو وقوانينه.

وليس هذا فقط، فقد أدرك عبد القاهر بثاقب فكره أن عملية اختيار المكونات ووضعها فى مواقعها الصحيحة، لا تكفى لإقامة بناء متكامل متسق الوحدات، متماسك اللبنات. فانصرف، بتأكيد ووضوح بيان، إلى المبدأ أو الأساس الثالث من أسس إقامة البناء أو النظم، وهو التعليق أو الربط بين هذه المكونات المختارة. يقول:"ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض".

وهكذا، انتهى هذا الرائد الكبير منذ زمن بعيد إلى ما انتهى إليه الفكر اللغوى الحديث، وسرنا على نهجه من أن وظائف النحو الأساسية، هى الاختيار والموقعية والربط أو التعليق.

وما الرأى فى الإعراب ؟

للإعراب نصيب كبير من الاهتمام عند البلاغيين، ولكنهم لم يشطحوا فيه شطح النحاة المحترفين. اكتفى البلاغيون ببيان قيمة الإعراب وأهميته، من حيث كونه أمارة صحة التأليف أو فساده، ومن حيث كونه المرآة الكاشفة عن صحة المبادئ أو الوظائف الأساسية لعلم النحو أو فسادها.

استمع إلى شيخهم عبد القاهر يقول فى هذا الشأن: "قد عُلم أن الألفاظ (المكونات) مغلقة على معانيها، حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها، حتى يكون هو المستخرج لها وأنه المعيار الذى لا يتبين

نقصان كلامٍ ورجحانه، حتى يُعرض عليه، وأنه المقياس الذى لا يُعرف صحيح أو سقيم حتى يُرجع إليه".

وهكذا أكد لنا هذا الشيخ الكبير ما رأيناه من أن الإعراب ليس مكونًا من مكونات البناء، وإنما هو أمارة صحة التأليف أو فساده. أو - قل - هو المرآة الكاشفة عن حال التركيب من حيث مجيئه وفقًا للقواعد المقررة فى بناء التركيب أو لا.

ومعنى هذا كله، أن تقييم الكلام من حيث الصحة والخطأ نحويًا ينبغى أن يوجه إلى كل وظائف النحو، لا إلى الإعراب وحده الذى اعتمده ويعتمده غير العارفين، كما لو كان الأساس الأوحد في الحكم على صحة التأليف أو خطئه، والذين اتهموا العربية بصعوبتها وتعقيدها، لعدم استيعاب حقيقة وجوهه، فى حين أن عدم الاستيعاب أو الجهل بوظائف النحو الأخرى هو السبب الحقيقى فى صعوبة اللغة التى يكشف عنها ويعكسها بوضوح جرس الإنذار فى ذلك كله، وهو الإعراب .

وإلى هنا نتساءل: أليس فى المستويات اللغوية الأخرى (الأصوات والصرف بالذات) خلط واضطراب فى الاستيعاب والأداء؟ نقول: بلى، بكل تأكيد، ولكن العامة وكثيرًا من الخاصة لا يدركون هذه الحقيقة لنقص فى المعرفة أو جهل بأبعادها، وانطلقوا - بلا روية - إلى اتهام النحو بالقصور والعور، لا عتمادهم - خطأ - فى هذا الاتهام على صعوبة الإعراب وتعقيد وجوهه، والخطأ فيه سهل تعرّفه على كل من له معرفة متواضعة باللغة.

وحقيقة الأمر أن الخطأ والخلط لهما وجود واضح فى الأصوات والصرف أيضًا.

الأصوات:

تحفل اللغة العربية فى العالم العربى الآن بخليط من الأصوات الزاعقة المحشوة بركام من الأصوات النافرة، من عربية ولهجية ورطانية وأجنبية. هذا الخطأ

النطقى له وجـود ظاهر فى الأصـوات المكونة للتـركيب أو البناء، وهى الأصـوات الصامتة cosonants والصائتة أى الحركات Vowels.

اختـفت أصوات أو كادت فى الاسـتعمـال الحى المنطوق من غالبيـة القوم، مثقفين وغـير مثقفين، كأصوات الثاء والذال والظاء. فينطقـون الثاء سينا، كما فى نحو "سلاسة" بدلاً من «ثلاثة» أوتاء كـما فى «تعلب» بدلاً من «ثعلب». وينطقون الذال زايا كـمـا فـى «زنْب» بدلا من "ذنب"، أو دالاً كـمـا فـى "دهب" بدلاً من "ذهب". أمـا الظاء فنادرًا ما ينطقـها العـرب نطقًا صـحيـحًا. والشـائع على ألسنة المصريين الآن نطقها زايا.

وهذه الصور المختلطة هى:

الجيم:

تأمل معى نطق صوت "الجيم"، إنه ينطق بخـمس أو ست صور. صحيح أنه كان لهذه الصور وجود فى القديم، ولكن هذه الصور لم يكن نطقها مختلطًا بعضه ببعض فى البـيئة الاجتمـاعية الواحدة. وإنما كـانت كل صورة منها مقـصورة على لهـجه مـعينة. أما الآن فـالخلط فى النطق لـه وجود ظاهر هنا وهـناك فى مجـمل البيئات العربية، بل فى نطق البيئة الواحدة أو الفرد الواحد.

١- ما يطلق عليها الآن الجيم الفصيحة (للتمييز بينها وبين غيرها من الصور) وهى المأخـوذ بهـا فى قـراءة القـرآن الكريم، وقـد نسـمـعـهـا أحـيـانًا من بعض المتخـصصين، ولهـا وجود ظاهر أيضًا بين العـامة فى صعـيد مصـر على وجه الخصوص. ورمزها فى الكتابة الصوتية [dj].

٢- الجيم القاهرية، وسمـيت بذلك لكثرة استخدامهـا فى القاهرة وبعض الحواضر المصرية الأخرى وغيرها من البلاد العربية. ورمزها [g].

٣- مايسمى بالجيم الشامية، نسبـة إلى تلك المنطقة العربية المعروفة "بالشام". وهذه النسبة لا تـعنى الآن قصر استخـدامها على هذه المنطقة وحـدها، إذ إن لها أثرًا

واضحًا فى نطق الكثيرين من المصريين وغيرهم، عندما يحاولون نطق الجيم الفصيحة، فيعجزون عن ذلك ويأتون بها جيمًا شامية. ورمزها فى الكتابة الصوتية [J].

٤- تنطق دالاً خالصة فى نطق بعض أهالى الصعيد فى مصر، فيقولون "ديش"، بدلا من "جيش"، و "دردا" بدلاً من "جرجا".

٥- تنطق ياءً، كما فى بعض لهجات الخليج العربى، وبخاصة فى الكويت ورمزها [y].

٦- قد تنطق زايًا فى بعض لهجات فلسطين وتونس. وهذه الصورة السادسة أشار إليها الجاحظ فى "البيان والتبيين" ونسبها إلى "الأنباط".

وندلف الآن إلى صوت القاف.

القاف:

ينطق هذا الصوت بثلاث صور شائعة فى معظم البلاد العربية. وقد تقع هذه الصور الثلاث فى البلد العربى الواحد، بل أحيانًا على لسان الشخص الواحد، فى المقامات المختلفة.

الصورة الأولى : نطق القاف نطقًا صحيحًا، وهذه الصورة هى ما يجرى عليه المجيدون من قراء القرآن الكريم فى مصر، ورمزها [q].

الثانية: هى الأكثر شيوعًا والأعم استخدامًا فى معظم لهجات العالم العربى، بل قد يلتزم بها بعضهم فى الفصيح والعامى على حد سواء.

هذه الصورة هى ما نسميها بالجاف (بنطقها جيمًا كما فى نطق القاهريين وأمثالهم) ورمزها [G].

الثالثة: تنطق القاف همزة خالصة، كما فى نطق القاهريين وأضرابهم من سكان الحواضر فى مصر وبعض البلاد العربية وخاصة لبنان.

الضاد:

ونأتى بعد إلـى صوت الضاد. وهو من أكـثر الأصوات العـربية حـيرة على ألسنة العرب.

قد ينطق صوتًا مفخمًا، كما فى نطق مجيدى قراءة القرآن، وعامة المصريين، وكثيرًا ما يصـيبه الترقيق، فينطق كـما لو كـان دالاً، كما نسـمعه أحـيانًا فى نطق السيدات.

ولهذا الصـوت صورة عجـيبة فى النطق فى بعض البـلاد العربية، كـالعراق والكويت. ينطقـونه فى معظم المقـامات اللغـوية بصورة تجـمع بين سمـات الضاد وسمات الظاء. وقـد يكتبه بعضـهم بالرمز (ض) وآخرون بالرمز (ظ)، وقـد يشير إليه بعض آخر فى الكتابة بالرمزين معًا فى النص المكتوب الواحد.

ولنطق هذا الصـوت فى القديم قـصة طويلة وعـجيـبة، من الصعـب تعرف حـقيـقة نطقـه بالدقة. كل الذى نعـرفه عنـه فى هذه الفتـرة القديمـة هو ما سـجله الأقدمون كسيبويه وابن جنى (وغيرهمـا) من أوصاف تبعد بنطقه بعدًا شاسعًا عن نطقه الآن فى مصر.

تلك أمثلة للأصوات التى أصابها الخلط والاضطراب فى النطق، الأمر الذى زاد من صعوبة العـربية وتشويه حقائقهـا على الجماهير العامـة، وبخاصة أن بعض الصور الشائعة فى نطق ما مرّ عن أمثلة يقع فى دائرة الخطأ المحض، وهو ما يقتضى النظر فى هذا المستوى الصوتى للغة العربية.

وهناك بجانب هذا الخطأ الصوتى المحض تجاوزات فى أداء أصوات أخرى، لا يدركها إلا الثقات العارفون.

يمكن التـمثيل لـهذه التجـاوزات بنطق صوتى "الراء" و "اللام" عـلى وجه الخصوص.

الراء: الراء فى العربيـة الفصيحة الصحيحة لهـا حالتان من النطق: مفـخمة ومرققة. التـفخيم له مواقعه وحـدوده وهو أكثر ورودًا فى اللغة، وللترقيـق سياقاته المحددة كذلك. ولكن القوم العرب الآن يخلطون خلطًا كبيرًا بين الحالتين، وهو ما يخـرج بالنطق العربـى عن أصوله المقـررة. ويظهـر الخلط بصورة أوضح فى مـيل الكثيرين - وبخاصة النساء - إلى ترقيق ما أصله التفخيم.

اللام: اللام فى النطق العربى الفـصيح صوت مـرقق، ولكنه فى لفظ الجلالة (الله) له حالات من التفخيم والترقيق وفقًا للسياق.

قال الثقات يفخم صوت اللام فى لفظ الجلالة إذا سبق بضـم أو فتح ، ولكنه يرقق إذا سبق بكسر، كما فى نحو بسم الله الرحمن الرحيم. وعلى الرغم من ذلك نلاحظ تجاوزًا واضحًا فى الأداء الصحيح فى نطق اللام فى هذه الحالة.

كل ما مضى مجرد أمثلة للأصوات الصامتة consonants التى أصابها الخلط والاضطراب فى أدائهـا النطقى، وهو ما يعنى عـدم استيـعاب الناطقـين لخواصـها وحقيقـة موقعها فى المنظومـة الصوتية للغة العربية. ولم تسلم الصـوائت الحركات "vowels" من الخطأ فى الـنطق أو التـجـاوز فـيـه بصـورة أوسـع وأعـمق مما لحق بالأصوات الصـامتة. وبيـان وجه الحق فى هذه الحالة يحتاج إلى وقفة خـاصة فى دراسة مستقلة، نأمل أن نأتى بها فى مقام آخر.

فى الصرف:

ليس الصــرف بأحـسن حظًـا من الأصـوات فى الخلط والاضـطراب نظرًا وتطبيقًا. قليلون هم أولئك الذين يهتـمون به أو يفكرون فى مشكلاته، أو يقدمونه للناشئة بصورة تعينهم على تعرفه تعرفًا يأخذ بيـدهم نحو هضم حقيقته واستخدام ظواهره وقواعده استخدامًا مقبولاً فى أدائهم النطقى للغة العربية.

والحق أن علم الصـرف بالذات قد ورثناه عن الأسـلاف محـشوًا بالتـعقـيد والصعـوبة فى رسم قواعده وتحليلهـا؛ الأمر الذى زحزحه وأبعـده عن إطار الألفة

والاهتمام به فى مراحل التعليم المختلفة من المعلمين والمتعلمين على حد سواء. هذا بالإضافة إلى أن أحدًا من المهتمين بشئون العربية لم يحاول تقديم مواده وعرضها على الراغبين على وجه يزيل غربته ويرشحه للقبول والتعامل به ومعه.

ومن هنا لا نعجب أن نجد الكلام العربى - كتبًا ونطقًا - مشحونًا بالأخطاء والتجاوزات الصرفية، وهو أمر معروف لكل ذى بصر وبصيرة. ويكفى فى هذا المقام أن نشير إلى أمثلة من هذا الخطأ الذى لا تسلم ألسنة العامة والخاصة من الوقوع فيه.

الخطأ واضح ومشهور إلى درجة حسبانه - عند غير العارفين - أنه الصحيح الذى استقرت عليه القواعد الصرفية المقررة. لاحظ معى الخطأ فى أوزان الأفعال والمصادر والمشتقات والتثنية والجمع مثلاً.

من ذلك قولهم:حرص (بكسر الراء) والصواب حرص (بفتحها) - بِدْء (بكسر الباء) والصواب بَدء (بفتحها) - قبول (بضم القاف) والصواب قبول (بفتحها) - سهولة وصعوبة (بفتح السين والصاد) والصواب سُهولة وصُعوبة (بضمهما) - الأخرتان (مثنى أخرى) والصواب أخريان - أخان أو أخّان، والصواب أخوان - الراسل والصواب المرسل - وفيات - جمع وفاة) بكسر الفاء وتشديد الياء، والصواب وفيات، بفتح الفاء وياء بدون تشديد... إلخ.

يتبين لنا من كل ما سبق أن صعوبة العربية وعدم استيعاب قواعدها والشكوى من العجز عن استخدامها بصورة سليمة، كلها أمور لها وجود ظاهر فى كل المستويات اللغوية، وليست مقصورة على النحو الذى درج العامة والخاصة على اتهامه وحده بأنه السبب الأساسى فى مشكلات العربية نظرًا وتطبيقًا. وحقيقة الأمر فى كل ذلك أن الصعوبة فى اللغة كلها بكل مستوياتها، إذ إننا فى واقع الأمر نعلّم ونتعلم قواعد موروثة للغة غائبة عن أصحابها.

ولنا هنا أن نتساءل: أين اللغة صاحبة هذه القواعد ؟ الإجابة سهلة ميسورة: اللغة العربية الفصيحة الصحيحة صاحبة هذه القواعد الموروثة عزلها أهلوها وحرموها من الاستعمال والحوار معها، فبعدت الشقة بين القبيلين إلى درجة ملحوظة، أوقعتهم فى حيرة من أمرهم، واكتفوا بالشكوى ولم يحاولوا النظر الدقيق فى سبل ووسائل تصحيح هذا الوضع الكارثى.

ما الحل ؟ ليس من المستحيل أن نصنع شيئًا فى سبيل خدمة لغتنا ونعيد إليها شيئًا من أمجادها وتمكينها من عرشها الذى هدمناه بأنفسنا، إلا إذا أفاق القوم من رقدتهم، ونظروا فى جوهريات مشكلاتها، دون الالتفات إلى ظواهرها وهوامشها.

هناك - فى رأينا - وسيلتان متصلتان غير منفصلتين من شأنهما معاونة الصادقين المخلصين على الوصول - وإن بالتدريج - إلى هذا الهدف القومى النبيل.

السبيل الأولى:

تتمثل هذه السبيل الأولى فى محاولة تمكين اللغة العربية الفصيحة الصحيحة من مواقعها التى يجب - ثقافيًا وعلميًا وقوميًا - الالتزام بها فى التواصل اللغوى مع الجماهير عامتهم وخاصتهم على السواء. هذه السبيل - وإن كانت تستغرق وقتًا طويلاً وجهدًا كبيرًا- معقود لها النجاح والتوفيق فى أداء دورها المرسوم أو المأمول فى تنشيط اللغة وتقريبها - بصورة من الصور - إلى أهليها.

ولنبدأ بتوجيه النصح إلى تلك المواقع المصنفة قدوة فى المجتمع، تربويًا وتعليميًا وثقافيًا وإداريًا وسياسيًا... إلخ، داعين مسئوليها بتكريمها وتقديرها على الوجه الذى يعدل أهميتها ومكانتها التى شرفوا بتصريف أمورها أو كلفوا بإنجازها.

هذه المواقع القدوة تبدأ بالأم، وإن كانت الأم العربية الآن - كما قررنا سابقًا- ينقصها الوعى الكافى بأهمية التثقيف اللغوى. وتليها فى الأهمية، على المستوى القومى، الهيئات والمؤسسات العامة والخاصة، ذات الاتصال الوثيق

بالجماهير مثل الدوائر الحكـومية، والنقابات المهنية، والجمعيات الثـقافية، والدعاة، وبيانات المسئولين وأحاديثهم الرسمية، وما إلى ذلك من كل موقع ينتظر من رجاله الإرشاد والتوجيه ورعاية ما يكلفون به من خدمات لأبناء وطنهم.

وإن ننس لا ننس دور التـعليم بمـراحله المختـلفة فـى شأن تصـحـيح المسـار اللغـوى. ذلك أن التعليم يشكل منظـومة متـكاملة ذات أبعاد مـرسومـة ومقـاصد مقررة تهـدف إلى تربية الناشئة وتثـقيفهم وإعدادهم إعـدادًا قوميًا له خصـوصياته وسـماته. وهى مـقاصـد وسمـات تعين مـواقـعهم فى صـفوف العـالم المشحـون بالصـراع على التـفـوق والتنافس على السـبق والسـيطرة، بـاعتـمـاد كل قـوم من المتصارعين على المعرفة الأوسع والأعمق؛ ونوعية الثقافة والتوجهات الفكرية التى من شأنها احتواء الآخرين وضـمهم إلى صفوفهم. ولا يكون ذلك - بالطبع - إلا بالسلاح الفاعل المؤثر وهو اللغة القومية لكل فريق.

ونأتى بعد إلى أهم درجـات القدوة - وأيسرها فى الوقت نفـسه - فى إطار تمكين اللغة من مواقعها الصحيحة.

نعنى بهـذه القدوة الإعـلام المنطوق المتمـثل فى الإذاعة والتليـفزيون علـى وجه الخصوص. هذا الجهاز الإعلامى يأتى على قمة الوسائل الفاعلة فى التثقيف اللغوى.

إن هذا الجـهـاز فـائق التـأثير جليل القـدر فى اكـتسـاب اللغـة وتنميـتهـا ونشرها. ذلك أنه منبـر الأمة فى مجموعـها، ولسانها الناطق المعـبر عن أفكارها وتوجـهاتهـا وثقافـتهـا. من هنا كان من الحـتم على هذا الجهـاز الالتزام باللـغة القـوميـة. وهى الفصـيحـة لأنها الأداة الـفاعلة والسـبيل الأقـوم إلى صب هذه الأفكار والتـوجهـات والثـقافـات فى بوتقـة واحـدة، ضمـانًا لهـا من التشـتت والتفرق وتعرضها للتنافر أو الضياع.

هذا السلوك اللغوى المـوحَّد هو مـايجرى العمل به فى مـعظم البلاد التى ترمى إلى توحـيـد الصفـوف والزحف بهـا فى تناسق وانضـباط وصـولاً إلى

الهدف المرسوم والغرض المطلوب، وهو الفوز بمواقع إنسانية رفيعة القدر، عالية الشأن، الأمر الذى ينبئ عن خصوصيتها، ويؤكد هوية أصحابها.

وإنما كان اهتمامنا بدور الإعلام المنطوق فى مسيرة الإصلاح اللغوى، لتأكيد الحقيقة العلمية المقررة التى تنص على أن اللغة (أية لغة) إنما تكتسب وتنمو وتعمق أو تصقل وتنتشر باتباع المبدأ الذى وضعناه، وهو "اِسْمَعْ و أَسْمِعْ" . ومعناه أنك إذا أردت أن تفوز بشىء من تصحيح المسار اللغوى، فما عليك إلا أن تسمع اللغة التى تود التعامل معها وبها مراراً وتكراراً، حتى تثبت قواعدها وظواهرها فى الذهن. فإذا كان الموقف التواصلى المناسب، عدت إلى هذا المخزون الذهنى، وأتيت على منواله بما يلبى حاجة هذا الموقف جهراً.

هذا المبدأ بالذات له أهميته القصوى فى تلك المجتمعات التى تكتسب معارفها وثقافتها بالسماع لا القراءة. ومن هذه المجتمعات - دون شك - المجتمع العربى فى عمومه، فنحن - كما يقال - قوم نسمع ولا نقرأ.

هذا المبدأ المرغوب اتباعه متحقق بالطبع - لا بالصنع - فى الإذاعة والتليفزيون. إننا نسمع كل ما يلقى علينا، ويستقر فى أذهاننا، ولهذا السماع والاستقرار أثره الواضح فى كلامنا (نطقًا وكتبًا)، حيث نأتى بمثله من وقت إلى آخر، فصيحًا كان أم عاميًا أو ملوثًا بأشكال متنافرة من الأصوات العربية والأجنبية أحيانًا. وإلى هنا نتساءل: هل يقوم الإعلام المنطوق بدوره المرغوب أو الواجب إنجازه فى مسيرة الإصلاح اللغوى، بوصفه أهم قدوة فى هذه السبيل فى بلادنا؟ لا ننكر أن هناك محاولات فردية فى بعض البرامج الإذاعية ترشح نفسها للقبول واعتمادها قدوة فى هذه السبيل حيث يأتى الكلام فصيحاً صحيحًا، صالحًا للتثقيف اللغوى الرشيد، ومحاولة الانتفاع به والسير على منواله قدر إمكانات المتلقين. يظهر ذلك مثلاً فى نشرات الأخبار وقراءة البيانات الرسمية، وفى بعض الحوارات مع الضيوف، ولو أن بعض هؤلاء الضيوف يخلطون خلطًا عجيبًا فى

كلامـهم شكلاً ومضمونًا، حـيث يضيع الوقت فى مكلمة صـارخة زاعقة لا تفـيد المتلقى فى قليل أو كثير.

أما الكثرة الكاثرة من البرامج فتقدم باللسن العامية المخلوطة، وتؤدّى بسرعة عجيبـة محـشوة بأخـلاط من الأصوات النافـرة التى تضطر السامـع فى كثيـر من الأحيان إلى إغلاق الجهاز.

ويرى كثير من الإذاعيـين وبعض المثقفين غير العارفـين، أن العاميات أقرب السـبل وأيسرها إلى التـوصيل فى مـجتـمع لا تألف غـالبيـته التـواصل بالفصـيح الصحيح من الكلام، أى اللغة القومية ذات الحدود والضوابط المقررة.

ونحن نقول : ربما يكون هذا الزعم صحيحًا فى التواصل العادى فى الشارع والمتجـر، وما إلى ذلك من مـواقع الحرف والصنائع والتـجمعـات الجماهـيرية هنا وهناك...إلخ. أمـا فى الإذاعة - القـدوة المثـالية فى الإصـلاح اللغـوى - فالأمـر يحتاج إلى تخـطيط وتصنيف للبرامج، حيث تقدم رسـائلها بصورة كلامـية تعدل أهمية الإذاعة فى التثقيف والتنوير وضرب المثل الأقوم فى خدمة القوم أجمعين.

لا ننكر وجود العامـيات، ولا نستطيع زحزحـتها من مواطنها التـقليدية. أما فى الإذاعة فالأولى بنا زحزحة هذه العاميات، وإن بالتـدريج، مع قصر استخدامها - إن كان الأمر ضروريًا - على تلك البرامج المحدودة التى يُظن أن العاميات تلبى حاجـة بعض الفئات التى درجت فى تسـيير شئـونها وإدارة أعمالهـا على أساليب كلامية أشبه بالاصطلاح التواصلى فى مواقعهم.

وهنا يأتى رأينا فى التـواصل اللغـوى المأخوذ به فى التليـفزيون. درج القـوم هناك على الاهتمام بالمظاهر والمناظر: أناقة ووجاهة فى الملبس والمجلس والابتسامة والحركة...الخ، أما اللغـة العربية فلا موقع لها إلا فى نشـرة الأخبار ونحوها، ومع ذلك لا تخلـو من التـجـاوز أو الخـطأ واللحن فى البـناء والطلاء، فى التــركـيب والأسلوب والأداء.

ويبدو من واقع الأمر الآن، أن العمل فى التليفزيون ينقصه الانضباط المحكم ويعوزه إدراك مسئوليته، ويشوب برامجه شيء من الخلط والسطحية والتهريج أحيانًا فى عرض مواده وتقديمها إلى المشاهدين: مواد مكررة فى القنوات المختلفة، أو بثها فى أوقات غير مناسبة، أو عدم كفايتها فى التثقيف أو حتى الترويح المقبول من النفوس السوية.

ويبدو أيضًا أن توزيع الأدوار على المذيعين والمذيعات يتم بطريقة عشوائية، دون مراعاة لثقافاتهم وإمكاناتهم التى تعدل نوعية ما يقدمون أو يعرضون من مواد. وتكون النتيجة مجرد ثرثرة صوتية، مصحوبة بحركات وإشارات تغشى المادة المعروضة، بل تقذف بها إلى الأجواء الخارجية المشحونة باللغط والصياح.

تأمل معى مثلاً جلسات الحوار مع الضيوف. ماذا تسمع وتشاهد ؟ تسمع خليطًا من الأصوات المتداخلة، بحيث لا تدرى من صاحبها (المذيع أم الضيف)، ولا تدرك ماذا يقول هذا أو ذاك، وتشاهد فى الوقت نفسه معركة حامية سلاحها حركات وإشارات تدفعك إلى مراقبتها، مهملاً أو غافلاً عن موضوع المعركة.

أما لغة التواصل فى هذه الحالات وغيرها، فهى عصية التصنيف: مفردات وأساليب نافرة من العربية، وأخلاط ملوثة من العاميات والرطانات، وأحيانًا من لغات أجنبية، إظهارًا للفوقية وامتياز الثقافة.

وهكذا خرج التليفزيون من دائرة القدوة فى تصحيح المسار اللغوى، ويا ليته يعود إلى رشده، وينضم إلى صفوف المجاهدين فى تمكين العربية من مواقعها، بتوجيه قدر من الاهتمام الجاد إلى تجويد أساليب الاتصال اللغوى.

السبيل الثانية:

تتمثل هذه السبيل فى وجوب النظر فى مناهج التقعيد الموروثة عن الأسلاف. من المعلوم أن هؤلاء الأسلاف - رحمهم الله - كانوا حريصين على

جمع اللغة من هنا وهناك، دون تحديد للمستوى أو البيئة. أخذوا عن الفصحاء الضاربين فى البادية، وعن القبائل فى دوائرهم الخاصة بألسنتهم المختلفة فى قليل أو كثير، بحكم أنماط أحوالهم المعيشية وظروفهم الاجتماعية.

فكان ما كان : جمع لمادة وفيرة غزيرة، ولكن يشوبها شىء من الاختلاف فى بعض الظواهر اللغوية، فى صورة لهجات ورطانات محلية، أو روايات متباينة أومتضاربة، صادرة عن أفراد، عرفوا بالرواة، ذوى انتماءات ثقافية واجتماعية ليس بينها إلف أو تقارب يرشح تصنيفها مجتمعًا واحدًا ذا لسان موحّد يمكن الاعتماد عليه فى التقعيد للغة واحدة.

انطلق اللغويون بعد إلى إخضاع هذا الكم الغزير المختلف المستويات للتقعيد. وحرصًا على تقعيد كل ما جمعوا، بقطع النظر عن بيئته أو مصدره، أخضعوا كل هذه المادة ذات المستويات المختلفة لنظام واحد، بمعنى أنهم أخضعوا الأمثلة المتفقة فى شىء المختلفة فى شىء آخر، لقاعدة واحدة أو حكم واحد، بمحاولة تحليل المختلف برده إلى ما رسموه من معايير، وضم هذه المتفقات المختلفات بعضها إلى بعض.

وكان المفروض اتباع مبدأ تعدد الأنظمة polysystemic principle، بمعنى وجوب مراعاة كل مستوى لغوى على حدة، ووضع نظام خاص لكل مستوى: نظام للمستوى العام - نظام للهجات - نظام للغة الشعر أو ضرورياته - نظام لكل ما جاوز الظواهر اللغوية العامة، بسبب اختلاف الرواة أو سياق الحال...إلخ.

ومعلوم أن مبدأ تعدد الأنظمة يجنب الدارس والمتعلم الانصراف إلى التأويل أو الافتراض أو الحكم بالشذوذ أو جواز أكثر من وجه للمثال الواحد...إلخ. ومن هنا يسهل الأمر على مستخدمى اللغة ومتعلميها، وتزول الصعوبة التى يشكو منها أهل اللغة قديمًا وحديثًا . ومعناه أن الصعوبة البادية فى قواعد اللغة ليست فى القواعد ذاتها.

القواعـد موجودة شئنا أم لـم نـشأ، وإنما الصعوبة الحـقيقـية تكمن فى طريق التقعيد والتنظير وتحليل المادة، أو بمعنى آخر: الصعوبة فى التقعيد لا فى القواعد.

ومعنى كل مـا تقدم بشـأن الشكوى من صعوبة اللغـة ، أننا لو عقـدنا الألفة بيننا وبين لغـتنا بالاستـعمـال الحى المنطوق، وحاولنا النظر فـى قواعدها بأسـاليب علمية خالـية من تعقيدات النظم الموروثة - لو حاولنا هذا وذاك لانكشـفت الغمة، وزالت الشكاوى، واستراح الناس وألفوا لغتهم نطقًا وكتبًا.

محاولات للإصلاح والتيسير:

أدرك هذه الصعـوبات فى قواعـد اللغة نفـر من المهتـمين بلغتهـم الحريصين على تقريبها من أهليها وإزالة الشكاوى الزاعقة فى العصر الحديث من مشكلاتها، فحاولوا صنع شىء فى هذه السبيل. فماذا فعلوا؟

من اللافت للنظر أن الأغلبية العظمى من هؤلاء المصلحـين ركزوا جهودهم على مـراجعة "النحـو" وقواعـده، أملاً فى الوصـول إلى تمكين اللغة من مـواقعـها وتقريبها من أهليها بتخليصها من مـشكلاتها وجعلها قريبة المنال من الجماهير، كل بحـسب مـوقعـه وإمكانيـاته. ونحن نقـول، نعم : الإصـلاح مطلوب والتيـسيـر مرغوب، ولكن النهج الذى سار عليه المصلحون للوصول إلى هذا الهدف الطيب، لا يفى بآمالهم وعاجز عن إتمام المسيرة المبتغاة. ذلك :

١- أنهم وجـهوا مـعظم محـاولاتهم إلى النحـو وحده، مـهملين أو مـتغـافلين أو جاهلين بأهمية النظر فى المستويات اللغوية الأخرى.

٢- أنهم انطلقوا إلى هذه النظرات النحوية منفردين، كل يعتمد على رؤيته الخاصة للمشكلات النحوية، ويختار منها للعلاج والنظر ما يروقه ويلائم أفكاره.

٣- أن أيا من هؤلاء المجتهـدين لم يرسم لنفسه منهجًا مـعينًا فى الدرس والتحليل النحوى، فجاءت مناهجهم جميعًا خليطًا من الرؤى والاتجاهات.

٤- أنهم فى حملتهم اقتصروا فى عملهم على مسائل جزئية من قضايا النحو ومشكلاته.

إنها جهود مشكورة ولا شك، ولكنها جميعًا جاءت قاصرة عن الوصول إلى أهدافها، لاختلاف النظر والرؤى واختلاف مناهج الدرس والتحليل وعدم التكامل فى معالجة البناء، وانصراف أغلبهم إلى النظر فى أبواب أو قضايا نحوية معينة لقربها إلى محصولهم النحوى، وألصق باهتماماتهم الشخصية. فكان الخلط والاضطراب فى نتائج محاولاتهم، وحار الناس فى الاختيار والأخذ بهذه المحاولة أو تلك.

والأغرب فى هذه المسيرة الإصلاحية المضطربة مناداة بعضهم بضم أبواب من النحو التقليدى بعضها إلى بعض، واقتراح آخرين بحذف أبواب بذاتها حذفًا نهائيًا، كما يظهر فى محاولة بعضهم ضم خبر "كان" إلى باب الحال، وحذف بابى التنازع والاشتغال لصعوبتهما وعدم مناسبتهما للتعليم فى الوقت الحاضر.

ونحن نرى أن هذه المحاولات من شأنها أن تشوه البناء ولا تصلحه، إذ كيف نفكر فى حذف أبواب من النحو، وقواعدُها موجودة فى اللغة شئنا أم لم نشأ ؟ إذا كانت هذه القواعد صعبة المنال والاستيعاب على بعضهم ، يمكن النظر فى التيسير مرحليًا، وذلك بعدم تقديم هذين البابين ونحوهما إلى الناشئين من طلاب المراحل الأولى فى التعليم العام، ثم نحاول بعد تقديمها بصورة ميسرة فى التحليل والشرح من خلال نصوص أدبية مقبولة صياغة ومضموناً.

ومهما يكن الحكم على هذه المحاولات من حيث صلاحيتها أو عدم صلاحيتها لتطبيقها والأخذ بها، فإن انصراف اهتمامهم فى جملته إلى "النحو" فقط أمر لا يقبله الثقات العارفون بطبيعة اللغة وحقائقها وعناصرها المكونة لها. اللغة بناء متكامل، يمثل النحو فيه جدران هذا البناء. وهذه الجدران نفسها مشكّلة من مكونات تقيم صلبها وترفع قامتها وتحيلها هيئة دالة على خصوصية البناء كله، وهو اللغة. ومعنى هذا كله أن هذه الجدران (النحو) مهما كان موقعها وأهميتها،

لا يمكن بحال سبر أغوارها وتعرف مادتها تعرفًا سليمًا دقيقًا إلا بالنظر فى مكوناتها وعناصرها التى شكلتها بالصورة التى تبدو عليها.

هذه المكونات والعناصر، أو قل، هذه اللبنات التى شكلت هذه الجدران وعينت أنماطها وحددت خصوصيتها بناءً وطلاءً، هى لبنات تنتمى إلى مستويات أخرى من مستويات الدرس اللغوى، وأعنى بها فى هذا المقام اللبنات أو المواد الصوتية والصرفية.

ومقتضى ما نقول أن هناك علاقة تكاملية وثيقة بين هذه المستويات الثلاثة (الأصوات - الصرف - النحو) . وهذا يعنى - فى نظرنا - أنه كان من الواجب على المصلحين أن يدركوا أن هناك صعوبات فى المستويات اللغوية كلها، وأن يحاولوا الكشف عن هذه الصعوبات، وأن يخرجوا بها إلى مسيرة الإصلاح، تمكينًا للغة وتيسيرًا لجهودهم فى مراجعة "النحو" التى لا تتم على وجه علمى دقيق إلا بالنظر فى لبناته المكونة لمادته، وهى العناصر والحقائق الصوتية والصرفية.

ولكن الذى حدث وما زال واقعًا حتى الآن أن جهود الإصلاح فى مسيرة اللغة لم تهتم بهذين المستويين (الأصوات والصرف) نظرًا وتطبيقًا، إلا فى النادر اليسير الذى لا يفيد شيئًا يذكر فى مجال تجويد البناء (اللغة) وإعداده للسكن وراحة الجميع، العامة والخاصة على حد سواء. وإليك البيان.

فى الأصوات:

لا ننكر أن جهودًا نظرية فى مجال الأصوات قام بها فى البدء أستاذنا الكبير دكتور إبراهيم أنيس رائد الدرس اللغوى الحديث فى العالم العربى. قام الرجل بالنظر فيما ورثناه عن الأجداد فى هذا المجال، وحاول تيسيره نظريًا بمنهج جديد فى العرض والتحليل، بأسلوب سهل ميسر، كما حاول عقد شىء من المقارنات بين القديم والجديد، مشيرًا إلى تجاوزات فى عمل الأقدمين، وتجاوزات فى نطق المحدثين العرب فى العصور الأخيرة.

وجاء من بعده نفر من تلامذته، وساروا على نهج أستاذهم ، فى محاولة الاهتمام بأصوات العربية، ولكنهم بالغوا فى النظر والتحليل باعتمادهم على المناهج والتوجهات الحديثة فى الدرس الصوتى. وهى مناهج وتوجهات عامة ذات أبعاد واسعة شغلتهم عن القيام بمسئولياتهم الحقيقية، وهى بيان كيفيات التخلص من الخلط والاضطراب فى أداء العربية صوتيًا. ومن هنا ضاعت محاولاتهم أدراج الرياح، وظل المستوى الصوتى بحاله ينتظر اليد الصناع لتشكيل بنيته الصحيحة التى يرجى إقامتها بوصفها مكونًا من اللغة التى نأمل تجويدها وتيسير قواعدها.

ويزيد الأمر إهمالاً وتغافلاً أن الكليات والأقسام المتخصصة فى اللغة العربية لم تشأ أن تخصص وقتًا معينًا لتدريس أصوات العربية والتدريب على أدائها إلا فى السبعينيات من القرن العشرين. وكان السبق فى ذلك لقسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية وقسم علم اللغة بدار العلوم، وحاول المسئولون هنا وهناك الاستعانة بمعامل الأصوات، بوصفها من خير وسائل التدريب على النطق الصحيح وكيفية أدائه أداءً سليمًا.

ومرت الأيام، واعوج طريق الدرس الصوتى، حيث ركزت آداب الإسكندرية على التدريب المعملى الصِّرْف، دون اهتمام كاف بالنظر والتحليل للأصوات وكيفيات تشكيلها، فى حين انصرفت دار العلوم إلى المبالغة فى الدرس النظرى، وتغافلت عن التدريب المعملى، وأهملت بالتدريج الاستعانة بالمعمل، حتى أصبح الآن مجرد تراكم من الأجهزة والأدوات، وصار طللاً على طلل.

وهكذا ظلت أصوات العربية تنعى حظها، إذ لم تجد من يناصرها، ويضعها فى مواقعها الصحيحة فى البناء الكبير المرجو إصلاحه وتيسير حقائقه، وهو اللغة.

فى الصرف:

النظر فى اللغة لتجويدها، أو جعلها مألوفة مأنوسة من أهليها، يقتضى حتمًا النظر فى "الصرف" ومشكلاته، شأنه فى ذلك شأن "الأصوات"، إذ هما معًا يشكلان مكونات التراكيب التى يختص "النحو" بمعالجتها.

ومع ذلك نلاحظ أن الصرف قد حرم حرمانًا ظاهرًا من معالجته والنظر فيه نظرًا جديدًا، يخلصه من مشكلاته واعوجاج طرائق الدرس فيه. نقول هذا، فى حين أن هذا المستوى اللغوى بالذات هو أولى المستويات اللغوية بالعود إليه لمراجعة مادته وتحليلها وتصنيفها واستخلاص قواعدها، إن أردنا تيسير استيعاب مسائله وتعيين مواقعها فى البناء اللغوى المتكامل.

معلوم أن علم الصرف الموروث محشو بالتعقيد فى مادته وبالصعوبة البالغة فى تحليل هذه المادة، الأمر الذى يوجب على المصلحين النظر فيه نظرًا يزيح الغمة ويريح المعلمين والمتعلمين.

تأمل معى مادة علم الصرف الموروث: إنها خليط من المستويات الثلاثة الصرف والأصوات والنحو، وتراكم ثقيل من مسائل هذه المستويات وتداخل بينها بحيث لا تدرى حدود أى منها.

من أمثلته الخلط بين الأصوات والصرف مثلاً ما نراه واضحًا فى أبواب الإعلال والإدغام والإبدال. إن مادة هذه الأبواب ونحوها مادة صوتية فى الأساس، حاول الأجداد فى تفسيرها وتحليلها ما حاولوا، حتى يصلوا بها فى النهاية إلى ما يمكن نسبته إلى الصرف. وهى فى رأينا محاولات عقيمة تحرم المتعلم أو الدارس من الاستيعاب، كما تحرم هذا وذاك من الوصول إلى الحقيقة الصرفية المراد بيانها إلا بعد جهد جهيد، بل ربما تختلط عليه الأمور ويخرج خالى الوفاض. وليس مقبولاً عندنا ما يزعمه بعض الدارسين من أن هذا الصنيع الموروث له مسوغ يرشحه للقبول، حيث يرشدنا إلى أصل الكلمة وما صارت إليه بعد فى صورة صيغة أو حقيقة صرفية. نقول: هذا احتمال وارد نظريًا، ولكن تفعيله أو تطبيقه يفسد ولا يصلح، كما يشهد بذلك واقع الأمر فى علم الصرف الآن المشهور بالتعقيد وصعوبة التحصيل إلى حد ينفر المعلم والمتعلم.

وهناك أيضًا فى التراث الصرفى (وما سار على هديه فى الحديث) أبواب كثيرة لها نسب قريب وصلة وثيقة بالنحو، أو قل، هى فى الأساس مسائل نحوية خالصة، من حيث موقعها ودورها فى التراكيب.

من هذه الأبواب الكلام عن العدد (الإفراد والتثنية والجمع) وعن النوع (التذكير والتأنيث) والتنكير والتعريف...الخ. ومعلوم أن هذه الأبواب لا تظهر قيمة مادتها إلا فى التراكيب، حيث تبين صحة الربط أو فساده بين مكونات التراكيب، وهذه وظيفة نحوية خالصة.

قد يقال: إنهم عرضوا لهذه الأبواب فى علم الصرف بوصف مادتها ضربًا من التمهيد أو مدخلاً لبيان قيمته فى التركيب. هذا احتمال وارد، ولكنهم بالغوا فى عرضها وعاملوها كما لو كانت مستقلة بنفسها، ولم يشيروا فى قليل أو كثير إلى هذه القيم على المستوى النحوى. ودليل ذلك أنهم عند كلامهم عن هذه المادة، اكتفوا بعرضها صيغًا ذات مبان شكلية متسمة بأوصاف التذكير أو التأنيث أو الإفراد والتثنية والجمع...الخ، دون أية إشارة إلى وظائفها فى الكلام المتصل. وهكذا ظل الخلط واقعًا فى معالجة هذه الأبواب وغيرها، وظل الصرف محشوًا بمادة معقدة تحتاج إلى تصنيف آخر فى الدرس والتحليل ونسبتها إلى المستوى اللغوى الذى تنتمى إليه.

هذا ما صنعه الأجداد ولا لوم عليهم فيما فعلوا، فهذا هو منهجهم فى الدرس، وهو منهج ينبغى النظر فيه وتعديل مساره، قصدًا إلى التيسير والإصلاح الذى ينادى به الزاعقون والصائحون من صعوبة اللغة.

كان على هؤلاء الزاعقين ومدعى الحداثة على وجه الخصوص أن يدركوا أن هذه المشكلات الصرفية ونحوها، لها منهج آخر فى الدرس والتحليل أدق وأيسر فى التعليم والتعلم.

هذا المنهج الآخر هو ما رسمته المدارس اللغوية الحديثة فى العالم، ويحاول الثقات من اللغويين المحدثين تطبيقه - على استحياء - على الصرف العربى الموروث.

يرى هؤلاء وأولئك أن دراسة هذه المشكلات ونحوها تقع فى إطارالمستويين اللغويين الجديدين، وهما ما يشار إليهما الآن بالتحليل الصوتى - الصرفى، morpho phonemic analysis، والتحليل النحوى - الصرفى morpho - syn-tactic analysis. وهما فرعان من النظر فى دراسة اللغة، يمكن الإفادة منهما فى تحليل المسائل المعقدة المتشابكة المبثوثة قسرًا فى علم الصرف . وعلى الرغم من ذلك لم يلتفت أحد من المنادين بوجوب التيسير فى قواعد اللغة إلى هذا المنهج الجديد فى دراسة اللغة.

تبين لنا من كل ما تقدم أن اللغة العربية (بمعناها القومى المشترك) فى وضع لا يعدل أهميتها، وأن أهلها يشكون من صعوبتها، وأن المخلصين منهم يحاولون تمكينها من مواقعها وعقد الألفة بينها وبين أصحابها.

حاول هؤلاء ويحاولون - مشكورين - علاج هذا الوضع للارتقاء بها إلى مكانتها اللائقة، ولكنهم حتى الآن لم يوفقوا فى الفوز بأهدافهم. ذلك أنهم فى محاولاتهم هذه سلكوا سبلاً معوجة وانتهجوا مناهج متباينة تباين رؤيتهم وتقييمهم لما تتسم به من مشكلات وصعوبات.

اكتفى الكثيرون منهم بالصياح الزاعق والإعلان الغاضب عن جمود اللغة وقصور مادتها عن التعبير عن حاجاتهم وعن التواصل فيما بينهم وحياتهم الحاضرة، وأصرّ الثقات منهم على النظر فى الأمر، بقصد التيسير والإصلاح، ولكنهم - للأسف - فشلوا فى تشخيص الداء، ومن ثم كان تجاوزهم فى تقديم الدواء.

لم يدركوا حقيقة الداء، وانصرفوا إلى محاولة علاج الظواهر العارضة التى يسهل إدراكها على العامة والخاصة والتى لا يفيد علاجها فى التخلص من الداء الحقيقى، موطن العلة وأساس الغمة. الداء الحقيقى يكمن فى غياب اللغة

وحرمانها من الاستعمال أو الحوار معها: عزلوها وابتعدوا عنها، ومع ذلك لم يكفوا عن الشكوى منها، بذكر أمثلة سطحية جزئية من صعوباتها.

المفروض توجيه العلاج كله إلى اللغة ذاتها، بدءًا بتمكينها من مواقعها المناسبة، مع محاولة النظر العلمى الدقيق فى تيسير قواعدها على المستويات كافة: الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، دون فصل بينها. اللغة بناء متكامل ليس من السهل أو المقبول الفصل بين مستوياتها إلا عند الضرورة القصوى. تتمثل هذه الضرورة فى حالتين اثنتين.

الأولى: عند النظر فى كل مستوى على حدة نظرًا علميًا بقصد تقعيد مواد هذا المستوى أو ذاك وبيان حدوده وموقعه فى البناء الكبير (اللغة)

الثانية: فى مرحلة التخصص للعارفين معرفة كافية بالبناء اللغوى كله بمستوياته المختلفة، كما فى مرحلة التعليم العالى وفى البحوث العلمية الأكاديمية كالماجستير والدكتوراه.

أما فى مراحل التعليم العام، وبخاصة فى مرحلتى الابتدائى والإعدادى، فليس من المقبول فى رأينا الفصل بين هذه المستويات. المفروض، بل الواجب أن ننصرف فى هاتين المرحلتين إلى تقديم اللغة بوصفها بناءً متكاملاً، والعمل على تقريبها وعقد الألفة بينها وبين المتعلمين. ويتحقق ذلك فى الأساس بالاعتماد على النصوص المختارة والتعامل معها بحصافة ودقة: يقرأ المعلم العارف الواثق النص المختار بأداء جهرى سليم، ويعود إليه بعدُ لشرح موضوعه ونقاطه الأساسية ثم ينقلب إلى الدور المهم فى العملية كلها، وذلك بإقراء تلاميذه بالتبادل جهرًا فيما بينهم. وفى هذه الأثناء، تكون الفرصة للتدريب على أداء اللغة وتصحيح الأخطاء أو التجاوزات، والكشف عما غاب أو اشتبه على الطلاب من حقائق اللغة وقواعدها. وللمعلم فى النهاية أن يستخلص ما يرى من قواعدها، ويسجلها كتابة أو يمليها على الدارسين.

وهذه الطريقة العملية كفيلة - بكل تأكيد - باكتساب اللغة وتنميتها وصقلها وجعلها قريبة مألوفة من الجميع. ولربما تزول الشكوى الزاعقة من صعوبتها، وتعقيد قواعدها.

من اللافت للنظر أن هذا الصنيع قد تنبه إليه وقام بتطبيقه من قبل أستاذ الأساتذة رائدنا ومعلمنا على الجارم وزميله مصطفى أمين فى كتابهما الموسوم "بالنحو الواضح" للمستويين الإبتدائى والثانوى، فلهما الشكر والتقدير، وعلى المخلصين الصادقين أن يحاولوا ويجربوا هذا النهج الطيب خدمة للغتهم ولأنفسهم.

حول المعجم التاريخى للغة العربية(*)

السادة الأساتذة الكرام أولى العزم وقادة الفكر فى وطننا العربى المغلوب على أمره، والمتلهف فى الوقت نفسه إلى جهودكم وتفانيكم فى خدمة لغته، بوصفها عماد القومية وعنوان الهوية. إنها اللغة العربية التى جمعت الأقوام هنا وهناك على كلمة سواء، وهى بذلك فى حاجة ماسة إلى العناية والرعاية، حتى تظل الرابطة المتينة التى تلم شتاتهم، والمنارة المضيئة أمامهم فى عالم يموج بالاضطراب واهتزاز الفكر واختلاف التوجهات.

وأظنه ليس بدعًا أو خيالاً أن نأخذ فى الحسبان عاملاً من أهم العوامل التى تفى بحقها علينا وبحق أجيال أهليها. ذلك العامل فى رأينا - وفى رأى الثقات العارفين - هو محاولة صنع معجم تاريخى لها يحكى مسيرتها عبر الزمان والمكان، أسوة بما صنع لكثير من اللغات التى حظيت بهذا الصنيع، وفاء بحقها واعتزازًا بدورها فى بناء قوميات أصحابها .

ولا يخفى على أى منا أن إصدار معجم تاريخى للغة العربية كان ومازال وسيظل حلمًا لكل المشتغلين والمهتمين باللغة العربية على اختلاف جنسياتهم ومشاربهم بل وتخصصاتهم، ولن يتوقف التفكير فى هذا الحلم إلا بإصدار هذا المعجم. ولعل البادرة التى بدأها العالم اللغوى الألمانى «فيشر» أواخر النصف الأول من القرن الماضى، كانت نقطة الضوء التى أنارت الطريق أمام جمع من الدارسين لاتخاذ الخطوات العملية لإصداره، خدمة للغة التى حافظت على بنائها وطلائها عشرات القرون، ولم يصبها ما أصاب غيرها من اللغات الحية.

(*) ألقيت هذه المحاضرة فى الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر المجمع فى دورته الثانية والسبعين يوم ٢٠ من صفر سنة ١٤٢٧ هـ الموافق ٢٠ من مارس (آذار) سنة ٢٠٠٦م.

ولعل «فيشر» - وقد قام بهذا العمل منفردًا، وأخرج نموذجًا منه بالصورة التى يعرفها جمع من اللغويين الجالسين بيننا الآن- كان أكبر حافز لنا فى اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية للعمل على إصدار هذا المعجم هذه المرة بجهوده الخاصة، ومعلوم أن هذا الاتحاد أكبر هيئة تهتم باللغة العربية على المستوى العالمى فيما أعلم.

فكر الاتحاد وناقش الأمر فى جلسات عدة متعاقبة واستقر رأيه على تشكيل لجنة تقوم بالإعداد لهذا المشروع.

وعن هذه اللجنة وجهودها أتلو على مسامعكم سطورًا وجيزة بوصفى الأمين العام لاتحاد المجامع والمدير التنفيذى المكلف بما سميناه هيئة المعجم التاريخى فى مرحلة الإعداد.

شُكِّلت اللجنة برئاسة رئيس الاتحاد السابق - المغفور له الأستاذ الدكتور شوقى ضيف، ويرأس اللجنة الآن سيادة الرئيس الأستاذ الدكتور محمود حافظ وضمت اللجنة فى عضويتها كلاً من :

-الدكتور إحسان النص	مقررًا
-الدكتور شاكر الفحام	عضوًا
-الدكتور عبد الكريم خليفة	عضوًا
-الدكتور على فهيم خشيم	عضوًا
-الدكتور أحمد مطلوب	عضوًا
-الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح	عضوًا
-الدكتور إبراهيم بن مراد	عضوًا
-الدكتور أحمد الضبيب	عضوًا

-الدكتور عبد الهادى التازى عضواً
-الدكتور محمد بنشريفة عضواً
-الأستاذ أحمد شفيق الخطيب عضواً
- الدكتور عبد العزيز المقالح عضواً
-الدكتور خالد عبد الكريم جمعة عضواً
-الدكتور محمد حسن عبد العزيز عضواً
-الدكتور على القاسمى عضواً

ويشرف محدثكم الآن أن يكون واحداً من هذه المجموعة من الزملاء.

وقد عقدت اللجنة عدة اجتماعات خلال عامى ٢٠٠٤م،٢٠٠٥م تم خلالها.

النظر فى الأوراق المقدمة من المجامع العربية حول المعجم التاريخى، وهى :

-ورقة مجمع اللغة العربية-القاهرة
-ورقة مجمع اللغة العربية-سورية.
-ورقة مجمع اللغة العربية-الأردن.
-ورقة مجمع اللغة العربية-العراق.

كما استعرضت اللجنة البحث المعقود له العنوان:«قضايا التعريف الدلالية فى المعجم العربى التاريخى» للدكتور إحسان النص، وبحثًا آخر بعنوان:«القواعد الأساسية فى تأليف معجم لغوى تاريخى» المنشور بمجلة المقتطف، قبل أكثر من ستين عامًا.

وتم إعداد ورقة موحدة حول مسوغات المشروع.

- واتفق على إنشاء هيئة تتبع اتحاد المجامع، وتضطلع بالقيام بالمشروع، تسمى «هيئة المعجم التاريخى للغة العربية».

– وفى هذا السياق اتفق الحضور على أن يكون مقر الهيئة الرئيسى بالقاهرة كما تم وضع النظام الأساسى للهيئة، ورسم الهيكل التنظيمى لها.

وإسهامًا فى بذل اللجنة غاية جهدها قامت بإعداد مسودة لائحة شؤون الموظفين بالهيئة، وإعداد مسودة المنهج العلمى للهيئة.

ولا يفوتنى أن أشير إلى أن توفير المال اللازم لإعداد مثل هذا المشروع من أكبر الصعوبات التى تواجه تنفيذه. ومن هنا أعدت اللجنة قائمة مقترحة بجهات التمويل، وتم صياغة خطاب لمراسلة هذه الجهات. ورأت اللجنة أن يتولى كل مجمع عربى فى بلده هذا الأمر مع هذه الجهات، على أن تتولى هذا الأمر الأمانة العامة للاتحاد مع باقى الأعضاء الممثلين لبلدان عربية ليس بها مجامع.

ولعله من المفيد فى هذا المقام توزيع البحوث التى قدمت إلى لجنة المعجم، مصحوبة بمسوغات القيام بهذا المشروع على السادة الحضور للاطلاع والإفادة منها فى أعمال مؤتمرنا هذا.

هذا ما أردت الإشارة إليه فى عجالة سريعة، واتحاد المجامع – ممثلاً فى الهيئة المنوط بها التخطيط لهذا المشروع الكبير – يسره أن يتلقى أية مقترحات أو إرشادات يستفاد بها فى عمله، ومن المؤكد أننا سنفيد من بحوثكم وآرائكم فى هذا المؤتمر بإذن الله.

فى تأبين الدكتور عبده الراجحى

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الدكتور/ محمود حافظ رئيس المجمع.

أسرة الفقيد الراحل وعشيرته الأقربين وتلاميذه المحبين

السادة الزملاء الكرام أعضاء المجمع

السيدات والسادة الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فما كان لى أن أقف هذا الموقف العصيب، موقف تأبين الصديق الأعز والزميل الكريم، وأنا المفجوع والمصدوم برحيله المفاجئ.

ذلكم أن الدكتور الراجحى لم يكن مجرد رفيق أو زميل فى المسيرة العلمية، وإنما كان أخًا ذا شخصية فريدة تقع فى دنيا الناس موقع واسطة عقد انتظمت حباته الصفوة من فرسان العربية وثقافاتها، وعلمًا فى قبيلة الشيوخ المصنفة قدوة فى الريادة ورجاحة الفكر وبعد النظر.

أيها السادة: وإنى إذ أقف مؤبنا هذا الرجل العظيم أجدنى عاجزًا عن الوفاء بحقه، حائرًا بين ما أقول وما لا أقول.

ومن ثم، فإنى سأشير بإيجاز شديد إلى قبس من ضياء مسيرته الاجتماعية والثقافية والعلمية.

على عادة أهل الريف الطيبين، التحق الصبى بكتاب القرية، بوصفه الخطوة الأولى التى تمنحه النور والهداية إلى صراط مستقيم، فحفظ القرآن الكريم، ثم

التحق بالتعليم العام وقضى فيه سنواته المقررة المرسومة، منتقلاً من مرحلة إلى مرحلة بثقة واقتدار، ليحط رحاله فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، عروس البحر المتوسط. وكان هذا القسم مُنْطَلَقه الأكبرَ فى دنيا الفكر واللغة والثقافة، فقد نهل فيه من علوم العربية وثقافاتها ما فجّر مواهبه وصقل إمكاناته التى غرس بذورها وأهّلها من قبل للنمو والتفعيل، حفظُ القرآن الكريم وتجويده فى كتاب القرية.

وأخذ الراجحى فى استثمار هذه المواهب وتعميق هذه الإمكانات حتى بلغ درجة الدكتوراه وحازها بثقة واقتدار. وهنا استوى له الأمر فى دراسة اللغة وبدأ مرحلة نشاط جديدة فى حياته، مشاركًا بالتدريس والبحوث والمناقشات والتعليقات فى الداخل والخارج فى المؤتمرات والندوات على اختلاف ألوانها وموضوعاتها وزمانها ومكانها، فعلا نجمه وذاع صيته.

وصاحب ذلك تدرجه فى مناصب إدارية عديدة فى إطار جامعته، وكان النجاح والتوفيق حليفه فى كل مكان تولى أمره وملك زمامه.

وكان لعظيم همته وسعة معارفه وعمق فكره فى العلم والعمل معًا أثر بالغ فى أن تمتد شهرته العلمية خارج حدود وطنه. فكان هذه المرة على موعد مع عروس أخرى للبحر المتوسط، حيث اختير عميداً لكلية الآداب بجامعة بيروت، ثم اختيررئيسًا لقسم تأهيل معلمى اللغة العربية للناطقين باللغات الأخرى بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية، كما دُعى أستاذًا زائرًا إلى جامعة صنعاء وجامعات لندن وأكسفورد فى بريطانيا وجامعة موسكو، وغيرها من الجامعات الآسيوية.

لقد كان الراجحى - رحمه الله - كالنحلة لا تقع إلا على طيب ولا تُخرج إلا طيبًا، فله فى كل مكان ذهب إليه أو عاش فيه ذكرى طيبة وأثر صالح. فلقد كتب الرجل وأجاد فى الدرس اللغوى القديم منه والحديث، العام والخاص ،

النظرى والتطبيقى، مغطيًا مجمل الفروع اللغوية، ومن أمثلة ما تركه فى هذه المجالات من علم ينتفع به الناس:

النحو العربى والدرس الحديث-النحو العربى وأرسطو-دروس فى المذاهب النحوية-دروس فى شرح الألفية-فقه اللغة فى الكتب العربية- اللهجات فى القراءات القرآنية- التطبيق الصرفى- التطبيق النحوى-علم اللغة التطبيقى وتعليم العربية- أسس تعلّم اللغة وتعليمها (مترجم بالاشتراك)- مشكلة تعليم النحو لغير الناطقين بالعربية- كلام الأطفال-اللغة وعلوم المجتمع.

وفى الأدب والأسلوب:علم الأسلوب والمواءمة.

وبهذا الإنتاج العلمى الغزير والجهد العلمى المتواصل، صار الراجحى صاحب مدرسة لغوية عربية لها مناهجها المتميزة وأهدافها الواضحة.

وكان لأصالة الفكر اللغوى عند الراجحى وآثاره اللغوية وعظيم مكانته فى نفوس أهل العربية وروادها دور كبير فى أن يدعوه مجمع الخالدين إلى الانضمام إلى قافلة فرسانه عام ٢٠٠٣م.

ولشدة محبة الراجحى للغة العربية، فقد أنفق جانبًا كبيرًا من عمره حاملاً لواء قضية تعليم اللغة العربية باللغات الأخرى، ليعد من أوائل اللغويين الجامعيين الذين أدركوا أهمية هذا الجانب. ويرجع إليه الفضل الأول فى تأسيس مركز مستقل لتعليم اللغة العربية للناطقين باللغات الأخرى بجامعة الإسكندرية.

وانتهى به الأمر فى هذا المجال- كما ذكرنا سابقًا - إلى رياسة قسم تأهيل معلمى اللغة العربية للناطقين بغيرها فى جامعة الإمام محمد بن سعود.

وإذا كان الراجحى فى مجال تخصصه ملأ الدنيا وشغل الناس، فقد كان مع ذلك مشتغلاً بقضايا عصره وأمته، يفرح لفرحها، ويأسى لحزنها، ويعكف على تحليل كل ما يحدث لها. ومن الأدلة على ذلك كتابه عن الشخصية الإسرائيلية الذى أصدره بعد عام واحد من نكسة ١٩٦٧م.

أيها السادة: لست اليـوم بصدد حصر ما قـدمه الراجحى لخدمة لغتـة وأمته، وإنما أحاول أن أخـفف من أحزانـنا لرحيله بتسلية القلب بشىء من مـآثره، ولكن هيهات هيـهات أن يسلو القلب عن أخينا الحبـيب. وما كنا نظنه سلوى لقلوبنا إنما هو تهييج لأحزاننا، وأذكر هنا بيت ابن الرومى فى رثاء ولده:

مـحمـدُ ما شـىءٌ تُوُهِّم سَلوة لقلبى إلا زاد قـلـبـى مـن الـوَجْـد

من كل مامضى يمكننا القول باطمئنان : إن الدكـتور الراجحى صاحب مدرسة لغوية عربيـة، لها مناهجها المتميـزة وأهدافها الواضحة. تنهض هذه المدرسـة على مبدأ يؤكد أن الفـكر العربى عمـومًا يقع تحت خطريـن : خطر الموت جمودًا إذا انكـفأ على القديم وحده، وخطـر الموت انسلاخًا، إذا ترك القديم كله وغـاص فى الحديث وحده. الحيوية تقتضى ترسيخ الجذور فى التراث والاندماج فى الوقت نفسه فى حركة العصر.

وفى عبارة أخرى، نؤكـد ما قاله غير واحد من العارفـين بالدكتور الراجحى والمستوعبين لثمرات جهوده العمـيقة المتواصلة. ومن ذلك ما قاله الدكتور عبد الله ابن عبد المحـسن التركى رئيس جامعة الإمـام محمد بن سعود الإسـلامية والوزير السـعودى الأسبق : "يمتـاز الدكـتور الراجـحى فى دراساته الـلغوية بالجـمع بين القديم والجديد وتحس عندما تقرأ له أنك تقرأ لعلم من أعلام اللغة العربية القدماء، فهو متمكن من التراث اللغوى الأصيل معتز به قادر على تقديمه للأجيال الجديدة بأسلوب يجـمع بين سلامـة اللغة ورصانتـها وبين وضـوح التعـبير والـقدرة على إيصال المعلومات. وتقرأ له من جانب آخر، فتجد نفسك أمام عالم لغوى معاصر، عارف بكل مستجدات علوم اللغة الحديثة". ونقول معه، حقًا إنه يجمع بين القديم فى أصالته والحديث فى جدته وطرافته.

لقـد عـاش الراجحـى بيننا هادئ الطبع، حلو الكلام، حـسن العـشـرة، نقى القلب والسريرة، مدافعًا عن الحق أينما كان، لا يخشى فى الحق لومة لائم.

كانت أيامـه معنا كنسمـات طيبات، فـرحمه الله رحـمة واسعـة وجعله مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

طبع بدار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت: ٢٧٩٤٢٠٧٩


Bibliotheca Alexandrina
1126470